

**الباب الأول**  
**الشعر الإسلامي في الفتوح**



## الفصل الأول

### الفتوح في صدر الإسلام

#### ١. دواعي الفتوح (الجهاد)

عجيب أن تقتدر أمة ناشئة كأمة العرب المسلمين، تتعاورها الفتن والاضطرابات، وحركات الارتداد والانتقاض من كل جانب، على أن تهدم إمبراطوريتين عظيمتين لتشيّد على أنقاضهما إمبراطورية عظيمة، في مدى لا يتجاوز عشر سنوات، تشمل على العراق والشام جميعاً وتتخطاهما، فتشتمل على فارس ومصر، حتى تبلغ حدودها الصين من الشرق، وتونس من الغرب، وبحر قزوين من الشمال، والسودان من الجنوب..

إن هذه لمعجزة بلا ريب؛ ووجه الإعجاز فيها أنها حدثت بأيدي العرب الذين كانوا إلى سنوات قبائل متنافسة، لا تهدأ منازعتها، ولا تطمئن فيما بينها إلى قرار. وبدى أن قيام الإسلام هو أول هذه العوامل التي حققت المعجزة، فهو الذي وحد العرب بعد شتات، وجعل قبائلهم المتنافرة أمة متضافرة، ودفعهم إلى إذاعة تعاليمه، وإعلاء كلمته، ودفع من يريد فتنه الناس عنه.

وقد كان العرب قبل الإسلام ضعافاً أمام الفرس والروم، بل إن مناطق كثيرة من بلادهم كانت تخضع لنفوذهما، فلما أسلموا أسرع هذا النفوذ إلى الانحسار والزوال عن بلادهم كلها، ولم يلبثوا حتى تخطوا إليهما الترخوم، وواجهوا جيوشهما التي حسبوها من قبل لا تغلب، وحاصروا حصونها التي توهموها لا تؤخذ، فإذا هي تنقض تحت صلابة إيمانهم من قواعدها. وإنما اقتدر العرب بعد إسلامهم على الفرس والروم لأن الإسلام نشأهم نشأة جديدة، وبت فيهم روحاً أحالتهم خلقاً جديداً؛ ذلك بأن اقتحم على نفوسهم مناطق عقائدهم، واتصل بوجدانهم في صميمه، وألقى فيه بذور التوحيد والإيمان والأخوة والتوحد، صافية في جوهرها، نقية من كل شائبة بسيطة البساطة كلها، فتحررت نفوسهم من قيود الوهم، وتطهرت قلوبهم من رجس الوثنية، وشعر كل واحد منهم بأنه لا حجاب بينه وبين الله ما عمل صالحاً واتقاه حق تقواه.

أخذ الإيمان بمجامع قلوبهم، فجمع بينهم بما سن من نظم روحية واجتماعية، دفعت في أفئدتهم قوة معنوية عظيمة، وحفزتهم للاندفاع إلى ما وراء تخومهم ومواجهة الفرس والروم في أعقار دورهما، وهذه القوة المعنوية هي أسس الظفر في كل نضال، فصاحبها لا يعرف الهزيمة ولا يرضأها ويستهيئ بكل صعب، بل يستهيئ بالحياة نفسها في سبيل الظفر بالغاية التي يريد بلوغها.

بهذه القوة اندفع العرب لقتال الفرس والروم، لا خبا في الغزو وتهافتا على مغائمه، وإرضاء لهوى القتال الكمين في طباعهم - كما يحاول المغرضون أن يصوروا هذا الاندفاع - وإنما جهادا في سبيل الله، يدفعهم إليه الإيمان الصادق بالعهيدة السليمة، والقوة العاتية التي بثها فيهم الإسلام، فحجبت إليهم الاستشهاد في سبيل الله، وفي سبيل الدعوة إلى الحق الذي أوحاه إلى رسوله، فانطلقوا على رغبة وحنين إلى الجنة، وباستهانة نادرة بالحياة يتمثلون الآخرة بنعيمها وظلالها، وكأنما يرونها رأى العين ويطيرون إليها متغنين بما وعدوا من جنان تحت ظلال السيوف، وآخرة هي خير وأبقى، بأن الله اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيله فيقتلون ويقتلون، وبأن الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم.

انطلقوا وملء ذاكرتهم تجارب هائلة، كان النصر فيها حليفهم في مواطن كثيرة، أظهرهم الله فيها على أعدائه وأعدائهم، حتى خلص لهم وجه بلاد العرب، وأنالهم رقاب المرتدين، فأعادوا الأمر إلى نصابه في بأس وحزم. وهامهم يجدون ريح الجنة، ويتمنون الشهادة في سبيلها، وترقبون اللحظة التي ينطلقون فيها نحو تخومهم، ليحملوا إلى العرب في الأطراف وإلى من وراءهم من العالمين هذه الدعوة التي لا يستطيعون الانطواء عليها وحدهم، وهي تتضوأ بدفتها ونورها في مواطن اعتقادهم، وقد أدركوا أنهم ورثة هذا النبي الذي بعث فيهم إلى الناس كافة، يهدونهم بهديه إلى ما اهتدوا إليه، وما ارتضوا لأنفسهم، فعليهم وحدهم يقع هذا العبء، وما عليهم - لكي يقوموا برسالتهم - إلا أن يقطعوا هذه الطرق التي طالما قطعوها من قبل تجارا يحملون

عروض الدنيا، لكنهم في هذه المرة تجار لتجارة لن تبور، يحملون دين الله الحق وهدى رسوله، ويبشرون بما هو خير وأبقى، متسلحين بما أفاء عليهم الإسلام من قوة وما يستشعرونه من خطر الرسالة التي يحملونها، متذرعين بما وعدهم الله من النصر، مهطعين إلى دعائه:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ (١٩٠) [البقرة].

﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ (١٩١) [البقرة].

﴿ فَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٩١) [البقرة].

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (١٩٣) [البقرة].

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٧٤) [النساء].

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٧٦) [النساء].

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ (١٠٠) [النساء].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا تَابًا أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ (٧١) [النساء].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤٥) [الأنفال].

[الأنفال].

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (٦٠) [الأنفال].

[الأنفال].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٢٨) [الأنفال].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٢٨) [الأنفال].

أَيُّمَا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَتَّصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴿٤٠﴾ [التوبة].

﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٤٢﴾ [التوبة].

﴿٤٣﴾ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٤﴾ [الحج].

﴿٤٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٤٦﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴿٤٧﴾ [الصف].

﴿٤٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرصُومٌ ﴿٤٩﴾ [الصف].

﴿٥٠﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥١﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٥٢﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٥٣﴾ [التوبة].

﴿٥٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَقْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَقْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٥٥﴾ [الأنفال].

وقد صدق ﷺ بما أمر به، فحرض على القتال، وزين الجهاد للمسلمين وحشم عليه، حتى يجعله في تقديرهم ذروة الإسلام وأفضل الأعمال طرا عند الله بعد الإيمان به وبرسوله، فيعلن أنه أمر أن يقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله وقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك فقد اعتصموا وعصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله. وأن الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة، ينجي الله تبارك وتعالى به من الهم والغم. وتنى أن يغزو في سبيله فيقتل، ثم يغزو فيقتل. وحكى عن ربه عز وجل: «أيما عبد من عبادي

خرج مجاهدا في سبيله ابتغاء لمرضاتى ضمننت له إن أرجعته أرجعه بما أصاب من أجر أو غنيمة، وإن قبضته غفرت له». وصور ﷺ ما أعد للمجاهد من أجر في الآخرة؛ فجسده محرم على النار، إذ لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في أنف مسلم. وما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار. وكل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه ينمى عمله إلى يوم القيامة، فيؤمن من فتنة القبر. ومن مات مرابطا في سبيل الله أمن الفرع الأكبر، وغدى عليه برزقه وريح الجنة. وطوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مغبرة قدماه، يطير على متن فرسه كلما سمع هية أو فرزة يتغنى القتل. ورباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوطه من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها. والقوة الرمي، فمن تركه بعد ما علمه رغبة عنه فإنه نعمة كفرها. والخيال أجر وستر، ومعقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.

بهذا كان ﷺ يحضهم على الجهاد، ويدفعهم إلى الاستعداد له، ويدعوهم إلى استكمال ثقافتهم العسكرية، ويشهد بنفسه ملاعبتهم لسيوفهم ورماحهم وضروب فروسياتهم وعدوهم، ويعجب بهم ويبدى استحسانه لما يرى من صنعهم، ويزين لهم تعليم أولادهم ركوب الخيل والعدو وحيل الحرب وأفانين القتال والرمية والسباحة، ويرغبهم في التجميل بخلائق الفرسان، في النجدة والشجاعة ونبد الجبن والخنوث.

فأثمرت هذه التعاليم ثمرتها، فكان الجهاد بلورة نورانية تجذب وجدان المسلمين، وتلهب مشاعرهم، وصورة متألقة في ضميرهم، تبدو الدنيا فيها مجازا للآخرة، والآخرة ثوبا للدنيا، فيعيش من عاش فيها سعيدا، ويموت من مات فيها شهيدا. ومن هنا حرصوا على الموت أكثر من حرصهم على الحياة، لا يجزعون أمامه، وهم مؤمنون بأن كل شيء قد قدر تقديرا، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٤) [الأعراف]، وأن حينهم سوف يواتيهم في ميقات معلوم ولو كانوا في بروج مشيدة. فما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسهم إلا في كتاب، ولو كانوا في بيوتهم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، ولن يصيبهم بعد هذا إلا

ما كتب لهم، وأن ما يسكن أن يصيهم لا يخرج عن أمرين: أمرهما حلوا، فإما الشهادة المؤدية إلى الجنة، وإما النصر الذي هو حق لهم ما أخلصوا في قتال عدوهم، وما نصروا الله، فإن ينصروه ينصرهم، والنصر من عنده يؤتاه من يشاء، وإن ينصرهم فلا غالب لهم.

انطلق المسلمون عبر حدودهم وكل هذه المعاني تعتمل في نفوسهم، وتنطلق على ألسنتهم، كما انطلقت على لسان المغيرة بن شعبه في مسامع رستم وحاشيته «يدخل من قتل منا الجنة، ومن قتل منكم النار، ويظهر من بقى منا على من بقى منكم»<sup>(١)</sup>.

وينطلق هذا المعنى في كتاب خالد بن الوليد إلى رؤساء فارس «أسلموا تسلموا، وإلا فاعتقدوا منى الجزية، وإلا فقد جثتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر»<sup>(٢)</sup>. كما ينطلق على لسان ربعي بن عامر، رسول سعد بن أبي وقاص إلى رستم في القادسية، وقد دخل على القائد العظيم في ثياب صفيقة، فوق فرس قصيرة، ولا يزال راكبها حتى يدوس بها على طرف البساط، ثم يترجل فيربطها ببعض الوسائد، ويقبل وعليه سلاحه ودرعه، ويبضته فوق رأسه، ليرد على من صاح به أن يلقي سلاحه: «إنما جثتكم حين دعوتوني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت» ثم يتوكأ على رمحه فوق النمارق ليقول مدويا مجيبا من سأله عن سبب مجيء المسلمين «ما جاء بكم؟»، «الله... ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»<sup>(٣)</sup>.

وقد تداول هذه المعاني أولئك المجاهدون الشعراء الذين اجتذبهم ألق الجهاد، فصم آذانهم عن كل دعاء إلا دعوة الله، فتركوا من ورائهم أهليهم وذويهم يناشدونهم البقاء إلى جانبهم، حرصا عليهم ورغبة في سلامتهم، ولكن كيف لهم أن يمنعوا أنفسهم طلبتها. وكيف لهم أن يقعدوا عن واجب أوجبه الله ودعا إليه، وليسوا عن

(١) الطبرى أوربا / ج٥ / ص ٢٢٧٩.

(٢) الطبرى أوربا / ج٤ / ص ٢٠١٩.

(٣) الطبرى أوربا / ج٥ / ص ٢٢٧٠.

يصرح لهم بالعودة . . . فهذه امرأة النابغة الجعدى تناشده الله أن يبقى، ولكنه يجيبها بأنه لا عذر له فى القعود.

باتت تذكرنى بالله قاعده  
يا بنت عمى كتاب الله أخرجنى  
فإن رجعت فرب الناس أرجعنى  
ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرني  
والدمع ينهل من شأنيهما سبلا  
كرها وهل أمنعن الله ما بدلا  
وإن لحقت برى فابتغى بدلا  
أو ضارعا من ضنى لم يستطع حولاً<sup>(١)</sup>.

وكذلك كان الشبان من المسلمين فى مقتبل العمر لا يستطيعون مقاومة اللهفة إلى الجهاد، فيخلفون وراءهم آباءهم ضعافا، يخافون عليهم ويكونهم، ولكنهم لا يحفلون بهم ولا بدموعهم. كما فعل شيبان بن المخبل السعدى مع أبيه؛ إذ خرج مع سعد بن أبى وقاص إلى غزو الفرس، وكان أبوه قد أسن وضعف، فما برح يناديه، ويتحسر على وحدته بعده، وجدا عليه وإشفاقا وهلعا، يقول:

أيهلكنى شيبان فى كل ليلة  
ويخبرنى شيبان أن لم يعقنى  
فإن يكُ غُصْنِي أصبح اليوم باليا  
فإن حنت ظهري خطوب تتابعت  
إذا قال صحبى يا ربيع ألا ترى  
أشيبان ما يدريك أن كل ليلة  
لقلبى من خوف الفراق وجيب  
تعق إذا فارقتنى وتحب  
وُغُصْنُك من ماء الشباب رطيب  
فمشىي ضعيف فى الرجال ديب  
أرى الشخص كالشخصين وهو قريب  
غبقتك فيها والغبوق حبيب<sup>(٢)</sup>.

وهذا كلاب بن أمية بن الأسكر يسأل طلحة والزبير عن أفضل الأعمال، فيخبرانه أنه الجهاد فى سبيل الله، فيقصد عمر رضى الله عنه يسأله الجهاد، فيبحث به إلى العراق، ولكن أباه يناشده الأبوة والعجز أن يبقى، فيوليه ظهره، ويتوجه إلى العراق مخلقا أباه ينتحب ويقول:

(١) الشعر والشعراء ج١ / ص ٢٥١ / ٢٥٢.  
(٢) الإصابة / ج٣ / ص ٢٢٧، الأغاني (سأسى) ج ١٢ / ص ٣٨.

كتاب الله إن حفظ الكتابا  
فلا وأبى كلاب ما أصابا  
على بيضاتها دعوا كلابا  
عباد الله قد عفا وخابا  
وأملك ما تسبغ لها شرابا  
كباغى الماء يتبع المرابا<sup>(١)</sup>.

من شيخان قد نشدا كلابا  
أناديه فولاني قفاه  
إذا سجعت حمامة بطن وج  
أناه مهاجران تكفاه  
تركت أباك مرعشة يده  
فإنك والتماس الأجر بعدى

ولكن كلابا لا يحفل به، فيذهب أمية إلى المسجد يبكي لعمر ويستعطفه أن يرد  
عليه ابنه، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. والعقوق - فى تصويره - معصية كبرى  
على هذه الصورة، ويعلن: أنه سيشكو عمر إلى الله إذا لم يرد كلابا:

ولا تدرين عاذل ما ألقى  
كلابا إذ توجه للعراق  
شديد الركن فى يوم التسلاقي  
ولا شغفى عليك ولا اشتياقي  
وضحكك تحت نحري واعتناقى  
له عمم الحجيج إلى بساق  
بيطن الأخشبين إلى دفاق  
على شيخين هامهما زواق<sup>(٢)</sup>.

أعاذل قد عدلت بغير قدرى  
فإما كنت عاذلتى فسردى  
فتى الفتيان فى عر وىر  
فلا وأبيك ما باليت وجدى  
وإيقادى عليك إذا شتونا  
سأستأدى على الفاروق ربا  
وأدعو الله محتبما عليه  
إن الفاروق لم يردد كلابا

وهكذا كان داعى الله أشد أثرا وأقوى فعلا فى نفوس المجاهدين من المسلمين،  
طغى على كل دعوة إنسانية، سواء أكانت من أب عاجز، أم من زوجة بائسة.

(١) الإصابة/ ج١ / ص ٦٥، أسد الغابة/ ج١ / ص ١١٦، الأغاني (ساسى) ج١٨ / ص ١٥٧، ابن سلام  
ص ١٦٠.

(٢) الإصابة/ ج١ / ص ٦٦، باقوت / ج١ / ص ٦٠٩، الأغاني (ساسى) ج١٨ / ص ١٥٧، ابن سلام  
ص ١٦٠.

وعلام يحفلون بهذه الدعوات وهذه الدموع ما دام الله تعالى قد دعاهم؛ فهذا الختات يجيب أباه لما جزع عليه وبكاه واستعطفه ليرجع:

ألا من مبلغ عنى ذريحا      فإن الله بعدك قد دعاني  
فإن تسأل فإني مستقيد      وإن الخيل قد عرفت مكاني<sup>(١)</sup>.

وهكذا كانوا يتسابقون إلى الجهاد، لا يعبتون بأهليهم الذين يناشدونهم عجزهم وضعفهم، فيضربون بكل هذا عرض الحائط، إيثارا للأخرة، وجبا في الظفر؛ ورغبة في المثوبة. فهذا - أبو خراش الهذلي - يقدم إلى المدينة فيجلس بين يدي عمر؛ ليشكو إليه شوقه إلى ابنه خراش الذي أوغل مع جيوش المسلمين في أرض الشام وتركه وحيدا، بعد أن انقرض أهله ومحبوه، وقتل إخوته، ولم يبق له ناصر أو معين، ثم ينشده:

ألا من مبلغ عنى خراشا      وقد يأتيك بالنبأ البعيد  
وقد يأتيك بالأخبار من لا      تجهز بالخذاء ولا تزيد  
تناديه ليغيبقه كليب      ولا يأتي لقد سفه الوليد  
فرد إناءه لا شيء فيه      كأن دموع عينيه الفريد  
وأصبح دون غابقة وأمسي      جبال من حرار الشام سود  
ألا فاعلم خراش بأن خير الـ      مهاجر بعد هجرته زهيد  
رأيتك وابتغاء البر دوني      كمخضوب اللبان ولا يصيد<sup>(٢)</sup>.

وأكثر من ذلك نجد كثيرا من المؤمنين والمؤمنات يدفعون بأبنائهم إلى الجهاد دفعا، إذ ليسوا بحاجة إليهم، وقد انتفت حالات العجز والضعف التي دفعت بالخلفاء إلى رد الأبناء على آبائهم الضعاف، ومنعهم من الجهاد إلا بموافقتهم. فنجد الخنساء الشاعرة المعروفة تدفع بينها الأربعة إلى الجهاد ليلة القادسية، وقد أخذت توصيهم قائلة: «إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو... إنكم لبنو رجل واحد وامرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا

(١) الأصابة/ ج ٢ ص ١٨١.

(٢) ديوان الهذليين/ ج ٢ ص ١٧٠، الأغانى (سأسى) / ج ٢ ص ٤٧.

غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، وأن الدار الباقية خير من الدار الفانية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران]، فإذا أصبحتم فاعدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب شمרת عن ساقها واضطربت لظى على سياقها وجللت على أوراقها، فيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام حميسها، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة<sup>(١)</sup>. فإذا بينها يباكرون مراكزهم إلى الجلال، وهم يتغنون بهذه النصيحة شعرا ملتها بالإيمان، يكشف عن تمكن روح الجهاد في نفوسهم وفعله بهم، يقول أولهم:

يا إخوتى إن العجوز الناصحة      قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة  
مقالة ذات بيان واضحة      فباكروا الحرب الضروس الكالحة  
وإنما تلقون عند الصائحة      وأتم بين حياة صالحة

#### أو مبيتة تورث غنمًا رابحة

ويتقدم فيقتل، ويحمل الثانى وهو يرتجز:

إن العجوز ذات حزم وجلد      والنظر الأفق والرأى السدد  
قد أمرتنا بالسداد والرشد      نصيحة منها ويرا بالولد  
فباكروا الحرب حماة فى العدد      إما لفوز بارد على الكبد  
أو مبيتة تورثكم عز الأبد      فى جنة الفردوس والعيش الرغد

، ويقاثل حتى يستشهد، فيحمل الثالث وهو ينشد:

والله لا نعصى العجوز حرفا      قد أمرتنا حربا وعظفا  
نصحا ويرا صادقًا ولطفًا      فبادروا الحرب الضروس زحفا  
حتى تلفسوا آل كسرى لفا      أو يكشفوكم عن حماكم كشفا  
إننا نرى التقصير منكم ضعفا      والقتل فيكم نجدة وزلفى

(١) الاستيعاب/ ج٢: ص ٧٤٥.

ويظل يجالذ الفرس حتى يصرع، فيحمل الرابع منشدا:

لست لخنساء ولا للأحرم  
ولا لعمرو ذى السناء الأقدم  
إن لم أرد فى الجيش جيش الأعجم  
ماض على الحول خضم خضم  
إمسا لفوز عاجل ومغنم  
أو لوفاة فى السبيل الأكرم<sup>(١)</sup>.

ويخر صريعا فيلحق بإخوته إلى الرفيق الأعلى، وحين يبلغ الخبر إلى أمهم تلك التي جعلت من أساها على أخيها صخر مناحة أليمة فى تاريخ الأدب العربى - نجدها لا تهتز له إلا فخرا فتقول: «الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم».

وهكذا نرى هذا الدافع العقدى الجبار يدفع بالأم إلى أن تقود بنيتها جميعا بيدها وبلسانها إلى الجهاد وتعدهم له، ويدفع بالابناء إلى أن يعصوا الأبوة فى سبيل الجهاد ولا يحفلوا بشيء، ويدفع الرجال إلى أن يتركوا وراءهم كل ما يتشبه به، وكل من يتمسك بقائهم، إنها قوة دافعة لا تقاوم، يغذيها الإيمان العميق، والإحساس الأصيل بضرورة الانطلاق بالرسالة إلى الناس كافة، ليتسنى لهم أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، انطلقوا جميعا يجيبون داعى الله، حتى غدت ديارهم خلاء موحشة، ليس فيها غير الذئاب، كما يصور ذلك أسامة بن الحارث الهذلى فى قوله:

فموشكة أرضنا أن تعود  
خلاف الأنيس وحوشا يبابا  
ولم يدعوا بين عرض الوت  
ير حتى المناقب إلا الذناب<sup>(٢)</sup>.

(١) الاستيعاب ج٢ ص ٧٤٥/٧٤٦.

(٢) ديوان الهذليين ج٢ ص ١٩٩.

## ٢- فتوح الشرق

يجدر بنا أن نشير هنا إلى خلاف المؤرخين على الزمن الذي حدثت فيه فتوحات الشرق ووقائعها خلافاً يصبح معه تتبع الحوادث في تسلسلها التاريخي مغامرة لا تستند إلى أساس يمكن الاعتماد عليه في شيء من الدقة. فالطبرى مثلاً يرى أن حروب الردة وقعت في السنة الحادية عشرة للهجرة، وأن فتح العراق تم في السنة الثانية عشرة، وأن فتح الشام تم في السنة الثالثة عشرة.

ويكاد المرء يظن حينما يطالع هذا التعاقب أن فتح العراق لم يبدأ إلا بعد الفراغ من حروب الردة، وأن فتح الشام لم يبدأ إلا بعد أن استقر الأمر للمسلمين في العراق، لكن شيئاً من التدقيق في مراجعة الحوادث ووقوعها لا يلبث أن يحمل على الريبة في مثل هذا الظن، ففتح العراق بدأ وحروب الردة لا تزال قائمة. وفتح الشام بدأ في أعقاب حروب الردة، وجيوش خالد بن الوليد لا تزال تعالج إقرار السكينة في أرجاء العراق، وتتوقع غزوات جديدة.

وقد رأينا أن التأريخ للفتوح الإسلامية يستتبع النظر العاجل في حروب الردة، التي أسهمت في توجيه أنظار المسلمين إلى الامتداد خارج شبه الجزيرة، فضلاً عن تأكيدها لوحدة الأمة الإسلامية، وصهرها في بوتقة الصراع الدامي، كتمهيد لما ينتظرها بعد من تحمل لرسالتها الجليلة.

فلم يكد أبو بكر رضي الله عنه يقضى على عيس وذيان وبنى بكر ومن انضم إليهم في الأبرق حتى انحاز فلهم إلى طليحة الأسدي بيزاخة، ورجع الصديق إلى المدينة وهو يفكر في الوسيلة التي يقضى بها على المرتدين. وكان جيش أسامة قد وصل إلى المدينة وقضى أياماً جم فيها، فخرج الصديق إلى ذى القصة حيث وزع جنده لمحاربة المرتدين أحد عشر لواء، جعل لكل منها أميراً، وأمره أن يستنفر من يمر به من المسلمين أولى القوة، وأن يسير لقتال المرتدين. وقد وزع الألوية توزيعاً مناسباً في عددها وأمرائها، مع قوة القبائل التي وجهت إليها، ومبلغ إلحاحها في الردة.

فتوجه خالد بن الوليد إلى طليحة بن خويلد في بني أسد، فإذا فرغ منه سار إلى مالك بن نويرة، زعيم بني تميم في البطاح. وبنو أسد وبنو تميم كانوا أقرب القبائل المرتدة

إلى المدينة، ولهذا بدأ بهم المسلمون، ووجهوا إليهم خالدًا. وتوجه عكرمة بن أبي جهل على اللواء الثاني إلى مسيلمة في بني حنيفة باليمامة. وشرحبيل بن حسنة على اللواء الثالث، ليعين عكرمة على مسيلمة، فإذا فرغا منه لحق شرحبيل بقضاة، مددا لعمر بن العاص وقد استعصت اليمامة على عكرمة، كما استعصت على شرحبيل. ثم كان النصر لخالد بعد أن قتل مسيلمة في عقرباء.

وعقد للمهاجر بن أمية المخزومي اللواء الرابع لقتال الأسود العنسي باليمن وعمرو ابن معد يكرب الزبيدي، وقيس بن مكشوح المرادي ورجالهم، فإذا فرغ منهم قصد كندة وحضرموت لقتال الأشعث بن قيس والمرتدين معه. وعقد اللواء الخامس لسويد بن مقرن الأوسى، ليتوجه إلى تهامة باليمن. وعقد اللواء السادس للعلاء الحضرمي، لقتال الحطم ابن ضبيعة أخى بني قيس بن ثعلبة، والمرتدين معه بالبحرين. ووجه حذيفة بن محصن الغلفاني من حمير على رأس اللواء السابع، لقتال ذى التاج لقيط بن مالك الأزدي المتنبئ في عمان. وكانت وجهة اللواء الثامن إلى مهرة، وعليه عرفجة بن هرثمة. كما توجهت ألوية ثلاثة إلى الشمال، على أحدها: عمرو بن العاص لقتال قضاة، وعلى الثاني: معن ابن حاجز السلمى، لقتال بنى سليم ومن معهم من هوازن. وعلى الثالث: خالد بن سعيد بن العاص لاستيلاء مشارف الشام، واحتفظ الخليفة بقوة لحماية المدينة، وكانت دون لواء من هذه الألوية عددا.

وكانت مهمة ألوية الجنوب صعبة، إذ إن موقع هذه المناطق الجغرافى جعل لبلاط كسرى فى هذه الأنحاء من الصلة بها، بل من السلطان عليها ما لم يكن له بغيرها من بلاد العرب، ولسنا نستطيع أن نتجاهل أثر هذا السلطان فى تحريك البواعث التى أدت إلى انتفاض العرب وردتهم. فقد رأى عاهل الفرس فىمن رأوا فى رسالة محمد إليه وإلى غيره من الملوك والأمراء ليدينوا بالإسلام ما أدى به إلى أن يعمل على إيقاظ نار الفتنة فى بلاد ليس بها من أسباب الوحدة غير الدين الجديد، الذى يجمع كلمتها، ويضاعف قوتها، ولا شيء كالفتننة يضعضع العزائم، ويفت فى أعضاء الأمم<sup>(١)</sup>. ولقد كان سلطان فارس على اليمن ممتدا إلى أن دخل عاملها لكسرى فى الإسلام، وصار عاملا للنبي ﷺ عليها،

(١) الصديق/ هيكل/ ص ٩٣.

ولكن سلطان فارس كان أكثر وضوحاً في البحرين وعمان، حيث كان من أبناء فارس عدد كبير استوطنهما، وعلت كلمته فيهما، لما كانت تقدمهم به فارس من نفوذها وقواتها كلما خشيت ثورة العرب الخالص بهم، أو محاولتهم القضاء على سلطانها في ربوعهم. فليس عجباً إذن أن تكون هذه البلاد آخر من دان بالإسلام على عهد الرسول ﷺ في عام الوفود، وأن تكون أول من ارتد حين قبض، ثم تكون آخر من يعود إلى الإسلام بعد حروب طاحنة، تختتم حروب الردة، وتعيد إلى البلاد العربية وحدتها الدينية، وتقيم فيها الوحدة السياسية. كانت الثورات في الجنوب إذن أعنف مظاهر الانتقاص على الدين الجديد في بلاد العرب بعد وفاة النبي ﷺ. لكن اليمامة وما حاذى الخليج الفارسي من القبائل كان يتلظى ببذور الثورة في هذا العهد، وكان المسلمون على حذر ليطل سلطانهم قائماً وكلمتهم مسموعة، فلا عجب إذن أن يكون ذلك أمر حواضر وباد تبعد عن منزل الوحي بمكة والمدينة، تتصل بالفرس وتبادلهم التجارة وتقر لهم بتفوق الحضارة، بل لا عجب أن تكون للفرس يد خفية في تحريك هذه الحواضر والبادي، لتنقض على الدين الجديد والسلطان الناشئ، ولكن المسلمين استطاعوا أن يعيدوا الأمر إلى نصابه، وأن يقضوا - في صرامة وحزم - على كل بواعث الفتنة قضاء مبرماً.

عادت الألوية الظافرة إلى المدينة، إلا أن بعضها انساح في الأرض يؤمن تخوم شبه الجزيرة وأطرافها، فأقام العلاء الحضرمي في البحرين بعد أن أرسل بانتصاره إلى الصديق، لا يخشى شيئاً إلا غارة قبائل البادية التي ألقت العزو والسلب، ودسائس الفرس الذين تقلص نفوذهم في جنوب الجزيرة. على أنه كان مطمئناً بعض الشيء إذ انضم إليه قبل ذهابه إلى دارين من قبائل البحرين ومن الأبناء من كفوه مئونة ما يخشى. وكان عتية ابن النهاس والمثنى بن حارثة الشيباني على رأس من انضم إليه، وقد قعدوا بكل طريق للمنهزمين، وللذين يعيشون في الأرض فساداً. وتابع المثنى المسير على شاطئ الخليج الفارسي، يقاوم دسائس الفرس، ويقضى على أنصارهم من القبائل والأبناء، حتى بلغ مصب الفرات، فكان لبلوغه هذا المبلغ والاتصاله بأرض العراق ولدعوته إلى الإسلام هناك أثر لا نبالغ إذا زعمنا أنه كان مقدمة لفتح العراق.

وقد يبدو الأمر متناقضا إذا ما رأينا إجماع المؤرخين المحققين على أن فتح العراق وفارس وما وراءهما لم يدر بخلد المسلمين في هذه الفترة ابتداء، وإنما دار هذا الخاطر بنفس أبي بكر حينما كان النصر يحالف ألوته في حروب الردة، فمذ قضى خالد بن الوليد على مسيلمة باليمامة، ومذ نشر المهاجر بن أمية وعكرمة بن أبي جهل لواء الإسلام في أرجاء اليمن وما جاورها، أيقن أبو بكر أن الأمر صائر إلى ما يرضى المسلمين، من الوحدة الفكرية والسياسية لشبه الجزيرة العربية، ولكنه كان يخشى أن يستنيم المسلمون لهذا النصر، وينسوا ما تنطوى عليه صدور العرب من حفيظة قد تضطرم فتضرم الثورة كرة أخرى، وربما يكون في اتجاه أنظار هؤلاء العرب إلى ما وراء الحدود في شبه الجزيرة ما يجعلهم ينسون حفاظهم وأحقادهم.

واتجه ذهن أبي بكر إلى اقتحام مشارف الشام وحرب قيصر، بعد ما كان من سياسة الرسول ﷺ نحو تأمين التخوم العربية بحملاته الشهيرة مما يصرف أذهان العرب عن ثاراتهم، ويجعل لهم من الفخار ما ينسيهم ضغنهم على المدينة وأهلها، ويمهد لانتشار كلمة الله في الإمبراطورية الرومية، ولكن.. ألا يمكن أن تقلب الآية فلا يحالف النصر ألوية المسلمين، فتعرض شبه الجزيرة لما هو أكثر شرا من الثورة التي أحمدها حروب الردة؟ حقا لقد قامت بين إمبراطورية الروم وفارس حروب استطالت على السنين، تداولوا فيها النصر والهزيمة، حتى انتهى الغلب فيها للروم، وقد استنفدت هذه الحروب من قوة الدولتين ما يحتاج جهدا ضخما وزمنا طويلا لتعويضه، ولكن بريق النصر الذي انتهى إليهم في هذه الحروب لا يزال يبهر أنظار العرب ويصددهم عن حريهم، ويجعل التفكير فيها مغامرة غير مضمونة العواقب.

وعلى الرغم مما لاقى العرب من دسائس الفرس في فتنة الردة فلم يدر بخاطر أبي بكر أن يحارب «فارس»، فضلا عن استشرء نفوذها في اليمن، فإن الحجاز لا يتصل بفارس. والبلاد العربية التي تتاخم الفرس هي البلاد التي فشت فيها الردة، ولهذا لا يمكن الاعتماد عليها، أو الركون إلى أهلها في غزو دولة لا يزال لها سلطانها عليهم.

ومن هذا يتضح ضعف تلك الآراء التي تجعل من الصراع الشهير بين الدولتين الفارسية والرومية حافزا للعرب على الفتوح. فالحقيقة السافرة أن هزيمة الدولة الفارسية على

أيدى الروم لم تقض عليها، ولم تؤد بها إلى الانهيار، ولم تدفع العرب إلى الانقراض عليها وإدخالها مثخنة بالجراح إلى حظيرة الإسلام كما يزعم البعض<sup>(١)</sup>، فقد كان لها بعد كل هذا جيوشها الجرارة، ونظامها وسلطانها. فإن كسرى أنوشروان الذى ولد لأول عهد النبى ﷺ كان قد جعل هدفه تجديد شباب الدولة الساسانية، فمضى فى سلسلة من الإصلاحات، تناولت شتى النظم الإدارية والمالية والعسكرية. ورد إلى الدولة الساسانية شبابها، فاستطاعت أن تنتزع من الإمبراطورية الرومية آسيا الصغرى وأرمينيا والشام، ونجحت فى أن تلم العالم المسيحى لطمه قاسية بإدخالها بيت المقدس فى حوزة الوثنيين، واستيلائها على صليب الصليبوت، كما استولت على مصر، وبلغ الأمر بها أن هددت أبواب القسطنطينية ذاتها<sup>(٢)</sup>.

وحتى لو فرضنا أن الدولة الفارسية انهارت على يدى «هرقل» ألم يكن أقرب إلى المنطق والعقل أن يُلتمها الروم أنفسهم، الذين طرَقوا أبواب عاصمتها «المداين» بعد هزيمتها المنكرة فى نينوى، وإرغامها على صلح مشين فى ٦٢٨م بطريقة أسهل من استيلاء العرب عليها، إذا ما قارنا بين حالة الروم وحالة العرب وقتذاك.

لا ريب فى أن أبا بكر كان يقدر قوة الفرس ومبلغ سلطانهم على الجنوب وأثره فى فتنة العرب، وأنه ليفكر ويقدر فى موقف المسلمين من هاتين القوتين دون أن يجرؤ على التفكير فى حربهما، إذ تترامى إليه الأنباء بأن المثنى بن حارثة الشيبانى قد سار بقواته شمالا فى البحرين حتى وضع يده على القطيف وهجر، وحتى بلغ مصب دجلة والفرات، وأنه قضى فى سيرته على الفرس وعمالهم، ممن عاونوا المرتدين بالبحرين، وأنه تابع مسيره مساحلا الخليج الفارسى إلى الشمال، حتى نزل فى قبائل العرب الذين يقيمون بدلتا النهرين، فتحدث إليهم وتعاهد معهم.

وفكر أبو بكر فيما جاءه من أنباء، فإذا به يفكر من ثم فى دفع المسلمين إلى خارج شبه الجزيرة، حتى يصرفهم عن ثاراتهم الأولى، فرمى ينجح المثنى فى التوغل إلى العراق، فيفتح للمسلمين المتعطين إلى الجهاد أبوابه. وبدأت عناصر نجاح هذا التدبير تتداعى إلى

(١) انظر الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم/ العدوى ص ٤٢.

(٢) نفس المرجع ص ٣٢.

خاطره، وقبائل العرب فى العراق من بنى لخم وتغلب وإياد والنمر وبنى شيان تهوى نفوسهم إلى منابهم فى شبه الجزيرة، ولم تبعد أنسابهم بعد عن أنسابها. وبرغم أن أكثر هذه القبائل قد نعم بالحضر وترفه إلا أنها ظلت شديدة التعلق بالبادية تسكن مشارفها، وهى فى هذا لا تستطيع مقاومة الوراثة البدوية المتغلغلة فى نفوسها، التى تأبى الاستقرار والركون إلى حياة الحضر الوداعة، فسكنت على شفا الصحراء، بين البادية والحضر، لتجد فى الحضر رزقها، وفى البادية ما يستهويها من الحرية والسحر والجمال.

وتردد فيما جاءت به أنباء المثنى أن قبائل العرب التى استقرت بدلتا النهرين، الغنية بالزروع والفاكهة والطيور والحيوان، مالت إلى الحضر والإقامة فعمل أبناؤها فى زراعة الأرض، وأن دهاقين الفرس يستولون على غلاتها، فلا ينال أولئك العرب منها إلا القليل الذى يوجد به الدهاقين عليهم، مما يجعلهم أدنى إلى الاستجابة لكل دعوة عربية. فمعاملة الدهاقين تعدهم للثورة بهم، وتمهد للمسلمين أن يستخدموهم أدوات لبث دعوتهم، وتأمين شبه الجزيرة من دسائس الفرس وعدوانهم.

هذا فضلا عن أن بطونا من ربيعة ومضر استقرت فى سواد العراق والجزيرة، فصارت لهم هناك ديار ومراع، ونزلوا على خفارة فارس<sup>(١)</sup>. وكذلك استقرت قبيلة تنوخ غربى نهر الفرات من الحدود الفارسية، حتى أنشأ لهم سابور الأول ملك الفرس إمارة الحيرة عام ٢٤٠م، وأمر عليها عمرو بن عدى، لتكون هذه الإمارة درعا يكفى دولة فارس من وراءها من الروم والأعراب، ولكن هذه العلاقة الوطيدة بين العرب والفرس لم تمنع القبائل العربية من الإحساس بعصبيتها وتوحيدها ضد الفرس فى يوم ذى قار<sup>(٢)</sup>.

فالعراق إذن لم يكن يوما ما غربيا عن عرب الجزيرة، بل كان دائما امتدادا لمنزلهم، ودار هجرة لهم، يجتذبهم إليه بخصبه واستقرار الحياة فيه، ويجوسون خلاله فى معاناة التجارة وخفارتها، ويجدون فى رحيلهم إلى الشرق والغرب فرصة مواتية للاختلاط بسكان هذه المناطق، اختلاطا يتعدى الناحية الاقتصادية إلى التأثير والتأثر، وتعميق المعرفة بأحوالهم ويظروف حياتهم. وكان فى أسواق العرب مجال لاختلاط التجار العرب

(١) المسالك والممالك، ص ١٨.

(٢) العقد الفريد، ج ٢، ص ٨١.

والفرس، وبخاصة في دومة الجندل على أطراف العراق وشبه الجزيرة، وعلى امتداد خط القوافل بمحاذاة الخليج الفارسي. وكان التجار الأعاجم يقدمون إلى مكة - قبل أن يلي هاشم شؤون التجارة - فيشتري منهم العرب، ويتبايعون فيما بينهم ويبيعون من حولهم. ثم أخذ العرب بعد ذلك يقتحمون العراق وفارس بتجارتهن، إذ اختص نوفل بن هاشم بالتجارة مع فارس وعقد معها حلفا ومعاهدة تجارية فيما يقال<sup>(١)</sup>.

وليس أدل على قوة هذه الصلات من أن سكان الحيرة والأنبار كانوا يكتبون اللغة العربية، فقد وجد خالد بن الوليد بعد فتح الأنبار قوما يكتبون بها فسألهم ممن تعلمتم؟ فقالوا: من إباد، وأنشدوه:

قــومى إباد لو أنهم أمم أولو أقاموا فستهزل النعم  
قوم لهم باحة العراق إذا ساروا جميعا والخط والقلم<sup>(٢)</sup>

وكذلك وجد قوم من العرب كانوا يجيدون اللغة الفارسية إجابة مكتهم من الاشتغال لدى ملوك الفرس بالكتابة والترجمة، من مثل عدى بن زيد التميمي، الذي كان يكتب لكسرى أنوشروان ويترجم له. وخلفه في عمله ابنه زيد<sup>(٣)</sup>.

وكانت وفادات العرب على ملوك الفرس لا تنقطع، وفي كل مرة كان العرب يعودون وقد حملوا معهم إلى موطنهم ألوانا من المعرفة والحضارة، كما فعل الحارث بن كلدة من وفوده على كسرى أنوشروان، وابنه النضر بن الحارث الذي تعلم في فارس صناعة الألحان والطب، وكان يجلس ليتحدى الرسول ﷺ بأحاديثه عن ملوك فارس<sup>(٤)</sup>. ومثل: عبدالله بن جدعان الذي وفد على كسرى فاستطاب من أطعمة فارس الفالودج، فابتاع غلاما أعجميا يصنعه له<sup>(٥)</sup>.

(١) حياة محمد، هيكل، ص ٩٧.

(٢) الطبرى ١/٤/٢٠٦١.

(٣) مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٥، ابن خلدون ج ٢، ص ٢٦٦.

(٤) السيرة (الخلي)، ج ١ ص ٢٢١.

(٥) الأغاني، دار الكتب، ج ٨ ص ٢٢٩.

ولا يزال التاريخ يحفظ وفادات الشعراء العرب على أمراء الحيرة العرب، التي استمرت طوال مدة حكمهم. فقد وفد عليهم طرفة بن العبد، والحات بن حلزة، وعمرو بن كلثوم، والنابغة الذبياني، إذ كان هؤلاء الأمراء يعنون باللغة والأدب، ويحبون الشعر والشعراء، ويهتمون بجمع الأشعار وتسجيلها وحفظها في قصورهم<sup>(١)</sup>.

هذا، وقد شاع في الأدب العربي، وفي الحياة العقلية للعرب بعامه كثير من آثار العراق وفارس سقطت إلى العرب عن طريق الحيرة، كأحاديث جذيمة بن الأبرش، وأساطير الزياء، والخورنق والسدير، وسنمار وجزائه ويومى البؤس والتعيم اللذين استنهما النعمان بن المنذر<sup>(٢)</sup>، هذا فضلا عما سقط إلى اللغة العربية من ألفاظ فارسية تجلت في استخدام القرآن الكريم لها. هذه الصلات الوثيقة وما يعززها من قرابة الدم والجوار واللغة، وتلك العلاقات العقلية والحضارية والسياسية كانت كفيلة كلها بتوجيه أنظار المسلمين إلى العراق.

ولم يكن خافيا على أبي بكر ما وصلت إليه فارس صاحبة السلطان في العراق من اضطرابات داخلية، ضربت بجرانها في البلاط الفارسي، إذ يسعى كل أمير ليقتل الجالس على العرش ليأخذ مكانه، حتى ليدعى هذا العرش في أربع سنوات تسعة من الأمراء كانوا يقتلون عليه، يقتل بعضهم بعضا جهرا وغيلة. وقد بدأ هذا الاضطراب في عهد كسرى أبرويز، الذي أرسل إليه الرسول ﷺ يدعوه إلى الإسلام، فكان جوابه أن كتب إلى عامله في اليمن بأن يرسل إليه ذلك الراعي ليرى رأيه فيه. وحدث أن ثار عليه ابنه شيرويه فقتله واستلب العرش، ولكنه لم يتمتع بالملك طويلا فمات بعد قليل، تاركا العرش لابنه الصغير، الذي ثار به أحد القواد فقتله ونصب نفسه ملكا، واستهدف هذا الملك لثورة الأسرة المالكة به، فقتل بعد أربعين يوما من ثورته. حتى آل الأمر إلى بوران ابنة كسرى أبرويز وكان ذلك في آخر حياة الرسول ﷺ.

لمح المسلمون في كل هذه الظروف المواتية فرصتهم وبشير سعودهم، وقد ارتفعت معنوياتهم بإعادة الأمور إلى نصابها، والظفر بأهل الردة، ويفرض كلمة الحق بالسلطان

(١) العملة، ج ١، ص ٦١.

(٢) فجر الإسلام، ص ١٨.

الصارم، فراحوا يستشرفون مثل هذه الغاية التي أعدوا لها أنفسهم منذ أن كان فيهم رسول الله ﷺ، وهذه فرصة ثمينة، يجب أن تكون خطوة لما بعدها. ولئن حالف المسلمين النجاح في هذه الخطوة لتكونن البشير لخطوات واسعة، فبقاع العراق الخصبة، التي أطلق عليها «جنة الأرض» تموج بكثرة غلالها ووفرة خيراتها وجمالها، وقد رأى أبو بكر صدق ما يذكره المثني، ورأى أن من الواجب على المسلمين أن يقوموا بتأمين العرب من أهلها، فإذا استجاب هؤلاء العرب من بعد للدعوة الإسلامية، ولم يصرفهم الفرس عنها فذاك، وإلا قاتل المسلمون الفرس، ليكون المجال فسيحا أمام كلمة الحق التي ستتصير لا محالة.

ويجمع أبو بكر ولاة أمر المسلمين وأولى الرأي منهم، للتداول في عناصر نجاح تدبيره. وما إن انتهى حتى يخطو الخطوة الأولى في فتح العراق، فيأمر المثني بن حارثة الشيباني بأن يسير بمن معه من قومه لقتال أهل فارس. ولما بلغت أخبار انتصاراته بدلنا النهرين رأى أن يمده، فكتب إلى خالد بن الوليد في المحرم من سنة ١٢هـ يأمره أن يجمع بقية جنده ويمضي إلى العراق فيدخله من أسفله، وأمر عياض بن غنم أن يسير إلى دومة الجندل ليخضع أهلها المرتدين، ثم يدخل العراق من أعلى، متجها شرقا إلى الحيرة، فإن بلغها قبل خالد فالأمر فيها له، وخالد فيها من قواده، وإن سبقه خالد إليها فالأمر والقيادة له، وعياض من قواده. . فإذا اجتمعتما في الحيرة وقد فضضتما مسالح فارس وأمتما أن يؤتّى المسلمون من خلفهم فليكن أحدكما ردها للمسلمين ولصاحبه بالحيرة، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم المدائن<sup>(١)</sup>.

وهكذا تهدف الخطة التي وضعها أبو بكر مباشرة إلى الحيرة، ومنها إلى المدائن. وعلى هذا يمكننا أن نجعل الفتوح الشرقية مراحل ثلاث، أولاها: ما قبل الحيرة، والثانية: تشمل ما بين الحيرة والمدائن، والثالثة: تشمل ما بعد المدائن.

### المرحلة الأولى:

كانت وصية أبي بكر لأمرائه أن يتجهوا إلى الحيرة، على ألا ينالوا العرب الفلاحين بسوء، فهم عرب، فضلا عما يشعرون به من ظلم الفرس الذي يجب أن يزول حين مقدم العرب، ليعمهم العدل على أيدي بني عمومهم.

(١) الطبري، ١/٤/١ - ٢٠٢١ - ٢٠٢٢.

وكان جنود خالد قد قل عددهم بعد قتال اليمامة، وتسريح من شاء الرجوع بإذن الخليفة، حتى لا يستفتح بمتكاره، وألا يكون معه في الغزو أحد ممن ارتد حتى يرى الخليفة رأيه فيه، ولهذا استمد خالد أبا بكر، فأمدّه بالقعقاع بن عمرو التميمي، فلا يهزم جيش فيه مثله، كذلك أمد عياضا بعبد بن عوف الحميري.

ولم يلبث خالد أن حشد ثمانية آلاف من ربيعة ومضر إلى ألفين كانا معه، ثم سار إلى العراق على رأس عشرة آلاف قدم بهم، على ثمانية آلاف كانوا مع أمراء الجند المسلمين الذين سبقوه إليه، والمثنى في مقدمتهم.

وكان أمر أبي بكر إلى خالد أن يبدأ بالأبلة(\*)، ولكن الرواة يجمعون على أن أول غزاة بالعراق كانت في الحفير، بينما يختلفون في أمر الأبلة، هل كان فتحها في عهد أبي بكر أو على عهد عمر؟ وكان أمير منطقة الحفير من قبل فارس يدعى «هرمز»، ومن أسوأ أمراء الثغور معاملة للعرب، حتى ليضرب به المثل في الخبث والكفر، وكان يعتبر نفسه حامى البلاد، لصدّه هجمات العرب وغاراتهم في البر، وقراصنة الهنود في البحر.

وقد سار خالد من اليمامة إلى العراق على رأس عشرة آلاف من الجند. وما إن بلغ حدود هرمز حتى ألقى المثنى وجنده في انتظاره، وحينئذ قسم الجند كله ثلاث فرق، وجه كل واحدة منها إلى طريق، على أن يلتقوا جميعا بالحفير.

وسارت الفرقة الأولى بقيادة المثنى، وتبعتها بعد يوم فرقة أخرى على رأسها عدى ابن حاتم الطائي، وبعد يوم آخر سار خالد في المؤخرة، وكان خالد قد أرسل إنذارا إلى هرمز الذي بلغه مع كتاب خالد أنباء جند المسلمين ومسيرهم فكتب إلى أردشير بالخبر، وجمع جموعه وسار إلى الكواظم ليلقى فيها خالدا، ولكن أنباء أخيرة جاءت به بأن خالدا أمر أصحابه بالسير إلى الحفير، فأسرع بجنده إليها، ونزل على الماء فيها. وقدم خالد ليجد جنده على غير ماء، فيقرر معهم ضرورة مجالدتهم على الماء.

وكان على مجنبتى هرمز أميران من بيت الملك في فارس، هما: «قباد» و«أنوشجان»، وأدرك هرمز أنه لن يدرك غرضه إلا بقتل خالد، فناداه وعهد إلى جماعة من فرسانه أن ينقضوا عليه فيقتلوه. وسمع خالد النداء، فمشى إلى هرمز والتقيا،

(\*) على الخليج الفارسي وهو الثغر الذي تسير منه التجارة إلى الهند والسند وترد إليه منهما للعراق.

فاغتنمها فرسان هرمز، وشدوا يريدون قتل خالد واستخلاص قائدهم من يده، لكن القعقاع بن عمرو لم يمهلهم، فشد المسلمون وانهزم أهل فارس، وطارد المسلمون الفرس إلى الليل، حتى بلغوا الجسر الأعظم من الفرات، وطار المثنى في أثرهم يلاحقهم<sup>(١)</sup>.

وكان لهذه الغزوة الأولى أثر عظيم، ألهب حمية المسلمين، فقد قتل هرمز بين يدي خالد، وغنم المسلمون ما شاء الله لهم أن يغنموا، حتى بلغ نفل الفارس ألف درهم خلا السلاح. وزاد نصر المسلمين جلالا تنفيذ خالد للسياسة التي رسمها أبو بكر مع العرب الفلاحين بالعراق، فسي المسلمون أبناء المقاتلة الذين كانوا يقومون بأمور الأعاجم، أما الفلاحون فتركوا وأقروا، وجعلت لهم الذمة.

وما لبث أردشير بعد أن تسلم رسالة هرمز أن دعا إليه أحد الأمراء الفارسيين المسمى قارن بن قريانس، وجعله على رأس قوة عظيمة سارت مددا لجيش الثغور، وانضم إليها قباذ وأنوشجان على رأس فلول المنهزمين وعسكروا بالمدار، وعلم المثنى في عودته من مطاردة الفالة بأمر هذا الحشد، وخشى أن يقابله دون خالد، فكاتبه بتفصيل ما عنده وأنزل جنده منزلا قريبا من المدار، وطار خالد بجيشه فبلغ المدار وقارن يعد للقاء المثنى. وأخاف قدوم خالد الفرس الموتورين، وإن لم يضعف عزمهم، وخيل إلى قارن أنهم إن هاجموا خاندا قبل أن يتخذ للموقف عدته لم يفتحهم الظفر بالمسلمين وردهم إلى ديارهم. ولكن خالدا كان على أهبة الاستعداد، فشد عليهم. ورأى المثنى في قدوم خالد معجزة أمد الله بها المسلمين فانقلب جنده من الخوف إلى اليقين بالنصر أسودا كاسرة، والتحم الجمعان فإذا بقارن وقباذ وأنوشجان يُدبَحون بأعين جنودهم، وسيوف المسلمين تطيح براءوس الفرس من كل جانب، فيفرون إلى السفن يتخذونها مطاياهم للنجاة<sup>(٢)</sup>. وقد أخذ الفرس تحت وطأة الهزيمة يحشدون عرب الضاحية والدهاقين لمعركة يثارون فيها، وفي الوجلة أوقع بهم خالد، وكانت الإصابة في بكر بن وائل فادحة<sup>(٣)</sup>.

(١) الطبرى ١/٤/١ - ٢٠٢١ - ٢٠٢٢.

(٢) الطبرى ١/٤/١ - ٢٠٢٧ - ٢٠٢٩.

(٣) الطبرى ١/٤/١ - ٢٠٢٩ - ٢٠٣١.

ورأى العرب من نصارى بكر بن وائل أن يثاروا لهزيمتهم، فكاتبوا الفرس واجتمعوا على أليس، ولكن خالد تمكن منهم، وقتل من العرب والفرس سبعين ألفاً<sup>(١)</sup>. واستمر خالد فى طريقه إلى أمغيشيا، لأن أليس من مسالحها، فخربها وفرق أهلها<sup>(٢)</sup>. ثم استقل خالد النهر، متخذاً من سفن أمغيشيا التى غنمها المسلمون مطية إلى مرزبان الحيرة، الذى نهض فى عسكره إلى خارج الحيرة، وأمر ابنه فسد قناطر الفرات، ليحول دون مسيل الماء فيما وراءها، فيعوق ذلك مسير السفن إليهم. وبينما خالد وجنده يدفون بسفنهم شمالاً إلى الحيرة إذ جنحت السفن وارتطمت بقاع النهر، فخرج خالد فى كتيبة من فرسانه، فلقى ابن المرزبان على فم العقيق، وقتلوه فى جنده شر قتلة، وأعاد خالد الماء يجرى فى النهر، فعادت المياه تفل السفن إلى الخورنق، حيث نزل المسلمون يستعدون لفتح الحيرة<sup>(٣)</sup>.

وكان أهل الحيرة متحصنين بقصورهم، فحاصرهم خالد، بأن جعل أصحابه يحاصر كل منهم قصراً، ثم دعوهم وأجلوهم يوماً فأبوا، فناوشهم المسلمون، وانتهت المناوشة باستجابتهم إلى الجزية وعقد الصلح<sup>(٤)</sup>. وما إن سقطت الحيرة حتى أخذ الدهاقين يتابعون على صلح المسلمين، إذ كانوا يترقبون ما يصنع أهل الحيرة. وبذلك بلغ سلطان المسلمين شاطئ دجلة، وأصبحوا مهددين له، ومن ثم أخذ خالد يكتب إلى أمراء فارس ومرابتهم يدعوهم وينذرهم ويتوعدهم.

وبينما ينهى خالد ما نيط به من خطة أبى بكر بدخوله الحيرة لا نسمع شيئاً عن شريكه عياض، الذى يدفع بخالد إلى إرجاء المرحلة الثانية من الخطة حتى يستنقذه، فيخلف القعقاع بن عمرو على الحيرة فى طريقه إلى الأنبار، وكان أهلها قد تحصنوا وخذقوا وأشرفوا من حصونهم، فأمر خالد بأن ترشق عيونهم، فأصاب منهم المسلمون ألف عين، ولهذا فقد سميت تلك الوقعة بذات العيون<sup>(٥)</sup>. وأفلح خالد فى أن يسد الخندق بالمناحر، واجتازه المسلمون، وفضوا الحصون، وأعملوا فى سكانها السيوف، ثم

(١) الطبرى ١/٤/١-٢٠٣٦-٢٠٣٦.

(٢) الطبرى ١/٤/١-٢٠٣٦.

(٣) الطبرى ١/٤/١-٢٠٣٧-٢٠٣٨.

(٤) الطبرى ١/٤/١-٢٠٣٨.

(٥) الطبرى ١/٤/١-٢٠٥٩.

ختلف عليها الزبرقان بن بدر. وانطلق بعد أن صالحه أهل كلواذى يريد عين التمر، حيث اجتمع على حربه فيها جمع كبير من الفرس والعرب من النمر وتغلب وإياد، جعلهم الفرس فى مواجهة المسلمين، حتى يقاتلوا وهم أقوياء، إذا لم يثبت العرب أمام المسلمين، ولم يثبت العرب أمام المسلمين، فقتل عقة بن أبى عقة زعيم العرب، وفر مهران قائد الفرس، وتمكن خالد من اقتحام الحصن الذى فر إليه الفرس وقتلهم فيه جميعاً<sup>(١)</sup>.

بعث خالد بالأخماس إلى أبى بكر مع الوليد بن عقبة، واستطاع أبو بكر أن يقف منه على سأم خالد من بقاته بالحيرة، وضيقة بانتظار عياض، وكان أبو بكر يرى موقف عياض مضعفا لروح المسلمين، فأمر الوليد أن يتجه لعياض بدومة الجندل، وألقى الوليد عياضا يحاصر القوم ويحاصرونه، وقد أخذوا عليه الطريق، فأشار الوليد بالاستنجاد بخالد، وما كان لعياض أن يتردد وقد بقى سنة لا يقوى على خصومه، فبعث رسولا إلى خالد أدركه يوم فراغه من عين التمر.

وما كاد خالد يفض كتاب عياض حتى تهلل، ورد الرسول لساعته يحمل كتابا إلى عياض فيه:

إياك أريد:

البيت قليلا تأتلك الحلائب      يحملن آسادا عليها القاشب

كثائب تتبعها كثائب

وخلف خالد على عين التمر عويم بن الكاهل الأسلمى، وخرج يحث السير فى جنده إلى دومة الجندل، وبينه وبينها ثلاثمائة ميل، وقطعها فى أقل من عشرة أيام بعزم لا يعرف الخطر. وما إن تسامعت القبائل بمقدمه حتى بهتت واختلفت. وكانت القبائل المعسكرة بدومة الجندل قد تضاعف عددها عما كان عليه منذ عام، ذلك أن بنى كلب وبهراء وغسان نفروا من العراق منحدرين إلى دومة الجندل ليثأروا من عياض لهزائمهم أمام خالد. وكان على هذه القبائل أكيدر بن عبد الملك، والجودى بن ربيعة، وكان من رأى أكيدر الصلح، فلما لم يتسن له حمل قومه عليه تركهم نجاة بنفسه، فأرسل خالد إليه من

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٦٢-٢٠٦٤.

أتى به وقتله. ونزل خالد عليهم فأظفر الله المسلمين، بعد أن أسروا رؤساء القوم، وقتلوا من التجأ إلى الحصن، عدا حلفاء تميم من كلب، فقد أجارهم عاصم بن عمرو<sup>(١)</sup>.

وكان لعرب الجزيرة أن يثاروا لمقتل عقة، ولهزيمة عين التمر، فكاتبوا الفرس فخرج روزمهر وروزبه يريدان الأنبار، واتعدا حصيدا والخنافس، وفي نفس الوقت خرج الهذيل ابن عمران فعسكر بالمصيخ، بينما عسكر ربيعة بن بجير بالثني، وعلم الزبرقان بن بدر أمير الأنبار بأمر هذا الترتيب الحربى، فكاتب القعقاع أمير الخيرة الذى بعث إليه بأعبد بن فدكى السعدى، وأمره بالحصيد، ويعروة بن الجعد البارقى، وأمره بالخنافس، فخرجا فحالا بين روزمهر وروزبه ومقصديهما. وبلغت الأنبياء خالدا فحث السير إلى الخيرة، حيث خلف عليها عياضا، ورمى بالقعقاع وأبى ليلى بن فدكى أمامه إلى عين التمر، فلما وافهما وجه القعقاع إلى الحصيد وأبا ليلى إلى الخنافس، ليعطى القوم فرصة للتجمع حتى يقاتلهم مرة واحدة مجتمعين<sup>(٢)</sup>.

وسار القعقاع إلى الحصيد وعليه روزبة، فاستغاث هذا بروزمهر فأغاثه بنفسه، والتقى المسلمون بالفرس فى الحصيد، فقتلهم الله شر قتلة، وقتل القعقاع روزمهر، وقتل عبدالله الضبى روزبة. وسار أبو ليلى إلى الخنافس وعليها المهبودان فانهمزم أمام المسلمين دون قتال، وفر جنده إلى المصيخ، يلتحقون بمن فيها من العرب.

وعقد خالد اجتماعا لقواده، وانفقوا على اللقاء بالمصيخ فى ساعة بعينها، توافوا إليها من ثلاث جهات، فبيتوا الهذيل ومن معه، وملثوا الفضاء بجث القتلى. ورأى خالد أن يسغت تغلب فى دارها، فستقدم إلى قائديه القعقاع وأبى ليلى بأن يرتحلا أمامه، وواعدهما الغارة على تغلب فى ليلة بعينها، واجتمع القواد الثلاثة من ثلاثة أوجه، فلم يكذب يفتل من جيش بنى تغلب أحد.

وذاعت أنباء خالد وفعاله بالقبائل وعجزها عن مقاومته، ففت ذلك فى أعضاء رجال البادية بالعراق، فآلقوا سلاحهم وطلبوا الأمان. وجعل خالد يسير على شاطئ الفرات فيما حوله فلا يلقى إلا الإذعان، حتى بلغ الفراض، وهى تخوم العراق والشام،

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٦٥-٢٠٦٧.

(٢) الطبرى ١/٤/٢٠٦٧-٢٠٧٣.

توجد الروم في مواجهته، ليس بينه وبينهم غير مجرى الفرات. وقد أفاض الروم أن يقيم جيش المسلمين في مواجهتهم، وأن يطيل المقام غير عابئ بهم، ولا بكتائب الفرس القريبة، ولا بأهل البادية من تغلب والنمر وإياد المنتشرين حولهم في كل مكان. ولم يلبث هؤلاء وأولئك أن انضموا إلى الروم وحرصوهم وأمدوهم، فسار خالد حتى إذا لم يبق بينه وبينهم غير الماء بعثوا إليه يخبرونه بين أن يعبروا إليه أو أن يعبر إليهم، فاختار عبورهم. وفيما يعبرون صف خالد صفوفه ودبر خطته، والتقى الجمعان، وأبلى المسلمون بلاء لم يعهده أعداؤهم، فلم يثبتوا لهم، وانكشفوا وأدبروا، والمسلمون من ورائهم يمعنون في قتلهم، حتى بلغ من قتل في هذه الواقعة مائة ألف من أعداء المسلمين<sup>(١)</sup>.

أقام خالد عشرة أيام بعد وقعة الفراض، ثم أذن في الناس بالرجوع إلى الحيرة، لخمس بقين من ذي القعدة من السنة الثانية عشرة، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالمسلمين، وأظهر أنه بالساقية، وفي نفس الوقت أمر شجرة بن الأعز أن يسوقهم. ومن ثم مضى هو إلى الحج - لا يعلم أحد بذلك - في طريق غير مطروقة، متعصفاً البلاد، ومتسماً مكة<sup>(٢)</sup>.

وما إن قضى نكته حتى سارع إلى جنده فأدركهم في دخولهم الحيرة، فالتحق بالساقية كأن لم يكن شيء. وقد اعتبر أبو بكر هذا العمل - حينما علم به بعد ذلك - زهواً من خالد بنفسه واغتراراً. وحدث أن مست الحاجة إلى رمي الروم بمثل ما رمى به الفرس، فلتقى خالد بالحيرة كتاباً من أبي بكر يأمره بأن يسير حتى يأتي جموع المسلمين باليرموك، فقد شجوا وأشجوا، على ألا يعود لمثل ما فعل، وألا يدخله عجب، وألا يدل بعمل. على أن يستخلف المثنى على العراق في نصف الناس، وأن يأخذ معه النصف، «فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم، ثم أنت على عملك»<sup>(٣)</sup>.

### المرحلة الثانية:

انتهت المرحلة الأولى من الفتوح الشرقية باستنقاذ عياض واستقامة العراق للمسلمين أسفله وأعلى. وبدأت المرحلة الثانية بنفس البداية، فالتفتي وحده في العراق بعد أن صدع

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٧٣-٢٠٧٥.

(٢) الطبرى ١/٤/٢٠٧٥-٢٠٧٦.

(٣) الطبرى ١/٤/٢٠٨٩-٢١١٠.

خالد بأمر أبي بكر، وتوجه في نصف جيش العراق إلى اليرموك. ولم يكد المثنى يعود من وداع خالد إلى تخوم الصحراء حتى بدأ ينظم الدفاع عن البلاد التي فتحها المسلمون. فلا ريب أن الفرس سيتحرشون به متى علموا بسفر خالد، ولا ريب كذلك فيما سيتكشف عنه حقد القبائل العربية التي لم يصلحها إلا بطش خالد، ولكنه أحفظها كذلك، فباتت تترقب الثورة بالمسلمين. وقد شعر خالد قبل توجهه إلى الشام بدقة الموقف، فبعث بالنساء والصبيان والضعفاء إلى المدينة.

ووجد المثنى نفسه في حالة لا يحسد عليها، فهو رائد الفتح في هذا الميدان وظليعته، وليس من الهين على نفسه أن يهزم فيه، وزاد الموقف صعوبة أن الفرس استقام أمرهم على شهر براز بن أردشير، الذي أراد إرهاب المثنى، فوجه إليه جندا كثيفا، بقيادة هرمز جازويه، وفي مقدمة جيشه فيل كبير. ولم يتظر المثنى أن يقدم عليه الفرس في الحيرة، متخطين المناطق التي حازها المسلمون، فخرج إليهم في جنده، وسار حتى بلغ أطلال بابل، وعلى مقدمتيه أخواه المعنى ومسعود، فعسكروا على مرتفع يبعد خمسين ميلا من المدائن. والتقى الجمعان، وكانت معركة رهيبة، ابتلى فيها المسلمون بالفيل الذي عانى منه الجند والخيل، حتى دل المثنى على مقاتله فقتله، وهاجموا الفرس فهزموهم شر هزيمة واحتلوا معاقلمهم، وتعقبوا فلولهم إلى أبواب المدائن<sup>(١)</sup>.

ونزلت الهزيمة على شهر براز نزول الصاعقة، فحم ومات. وعاد الاضطراب إلى البلاط الفارسي من جديد، فاطمان المثنى قليلا، ولكنه حسب حساب الغد حينما تنتهي هذه الخلافات، ولا بد له أن يكون مستعدا للقائهم لقاء حاسما. والخليفة لا يمكن أن يمهده وجيوشه موزعة في الشام والعراق، ولو كان في الإمكان إمداده لما فصل خالد بنصف جيش العراق، ولكنه كتب إلى الخليفة يستأذنه في الاستعانة بمن ظهرت توبته من أهل الردة. وفي انتظار رد الخليفة أقام يدبر خطته ويحكم تدبيره، وأبطأ رد الخليفة، ولم ير المثنى بدا من الانسحاب إلى أدنى أرض العراق من حدود البادية، حيث خلف على المسلمين بشير بن الخصاصية، وذهب بنفسه إلى المدينة ليرى رأيه مع الخليفة. وفي المدينة ألقى المثنى أبا بكر مريضا مرضا يشفى على الموت، ولكنه استقبله، واستدعى عمر بن الخطاب فأوصاه أن يندب الناس مع المثنى، لا تشغله مصيبة وإن عظمت عن وصيته.

(١) الطبري ٢١٥٢/٤/١..

ويقضى الخليفة الأول في الحادى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ بعد إصدار أمره بئدب المسلمين مع المئنى، لاسكمال المرحلة الثانية من الخطة التى رسمها. ولم يضع الخليفة الثانى وقتا، فأخذ يئدب الناس باذلا فى ذلك جهده، حتى بلغ له من أهل المدينة ومن كان قد ارتد حشد كبير، أمر عليه أول متدب - أبا عبيد عمر بن مسعود الثقفى - وعجل المئنى، فسبق أبا عبيد، ووصل إلى الميدان بعد عشر ليال، ليلحق به أبو عبيد بعد شهر من وصوله.

ولا يكاد المئنى يستقر بين جنده حتى يسأل عما آل إليه أمر البلاط الفارسى فيبلغه أن الفرس ولوا ابنة كسرى عليهم ثم خلعوها، وخلفها سابور بن شهريران، الذى تأمرت عليه ابنة عمه آرميدخت، فقتل وقتل وزيره الفرخزاد، وجلست على عرش فارس. لكن القائد رستم بن الفرخزاد انتقم لآبيه، فألحق الهزيمة بجيوش الملكة وحاصر قصرها. وأقام بوران ابنة كسرى على عرش البلاد، فأطلقت يده فى أمور الدولة وجعلته على الجند، وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا.

وبلغ أبو عبيد العراق، فوجد المئنى قد انسحب إلى «خفان» على حدود البادية، لأن رستم أوعز إلى الدهاقين بالسواد أن يثوروا بالمسلمين، ودس فى كل رستاق رجلا يثير أهله، ثم أرسل جندا لمصادمة المئنى، الذى آثر الحذر وانسحب من الحيرة، حتى لا يؤتى من خلفه. وفى «خفان» وافاه أبو عبيد، وأقاما يدبران خطة لملاقاة الفرس.

وكان رستم قد عهد إلى جابان - أحد قواده - أن يتجه على رأس جيش عظيم إلى الحيرة، كما عهد إلى قائد آخر هو نرسى أن يتجه إلى كسكر. وخرج المسلمون بعد أن جموا فى «خفان»، فالتقوا بهم عند النمارق، واقتتلوا قتالا شديدا، أظفر الله فيه المسلمين، فأسروا جابان ومردا نشاه<sup>(١)</sup>.

وما إن علم رستم بهزيمة جابان حتى أمر الجالينوس بأن يسير إلى المسلمين فيلحق بنرسى فى كسكر، ولكن أبا عبيد كان أسرع منه، فحث بجنده السير لمواجهة نرسى، الذى انحاز إليه فل النمارق. والتقى المسلمون بالفرس فى مكان يدعى بالسقاطية على مقربة من كسكر قبل أن يصل الجالينوس. ولم يثبت نرسى أكثر مما ثبت جابان، ففر فى

(١) الطبرى ١/٤/٢١٥٢-٢١٦٨.

جندته تاركا لهم مغانم كثيرة. وأقام أبو عبيد بكسركر، بينما سرح المثنى وغيره من القواد يغيرون على النواحي القريبة، فاحتلوا سواد العراق - أسفله وأعله - وأذاعوا الرعب فى القوم، معيدين إلى ذاكرتهم أيام خالد بن الوليد. فما لبث الدهاقين حتى جاءوا أبا عبيد يصلحونه، ويعتذرون عن عمالة الفرس، وأن ذلك كان بإكراههم. ولما تم الصلح معهم جاءوه ببعض الهدايا<sup>(١)</sup>، ونهد أبو عبيد للجاليينوس الذى كان تحول إلى باقساينا فهزمه وأجأه إلى الفرار<sup>(٢)</sup>.

وتبلغ الهزيمة رستم، فيجهز جيشا عليه بهمن جاذويه، ويبعث بالجاليينوس والفييلة وراية فارس الكبرى «درفش كايان» فى جيش لم يعرفه المسلمون من قبل، وتراجع أبو عبيد بجنده إلى قرية قس الناطق، بعد أن عبر النهر إليها وتحصن بها ينتظر عدوه. وأقبل بهمن يفصل بينه وبين المسلمين النهر، وبعث يخير أبا عبيد فى أن يعبر إليهم أو يعبروا إليه وأشار أصحاب أبى عبيد عليه بالأى يعبر، وأن يدع الفرس يعبرون، لكنه أخذته العزة فقال: والله لا يكونون أجراً منا على الموت، بل نعب نحن إليهم. وعبر، فعب المسلمون واقتلوا على الجسر، فأصيب من الفرس ستة آلاف قتل وغريق، ولم يبق لهم إلا الهزيمة، برغم هول الفييلة وخيبة الخيل بإزائها، وحدث أن أبا عبيد كان يعالج فيلا فخبطه وأصابه، فتضعض المسلمون لإصابة قائدهم، وركب الفرس أكتافهم، فبادر رجل من ثقيف إلى قطع الجسر، ظنا منه أنه بذلك يمنع الفرس عن المسلمين فكانت الطامة، إذ أخذت السيوف المسلمين من كل ناحية، فتهافتوا فى الفرات، واستطاع المثنى فى حماية نفر من المسلمين أن يعقد الجسر، وعبر المسلمون إلى المروحة عائدين إلى مكانهم. وأصيب المثنى بجراح وهو يعقد الجسر. وفر ألفان من المسلمين وقتل أربعة آلاف منهم. وبقي المثنى فى ثلاثة آلاف فحسب<sup>(٣)</sup>. وكانت هزيمة الجسر.

هذه أول هزيمة صادفها المسلمون، ولهذا كان أثرها فى المسلمين أليما وعنيفا، حتى ليتجاوز ميدان المعركة إلى المسلمين فى المدينة، حيث لجأ الفارون. ورأى عمر بثاقب رأيه

(١) الطبرى ١/٤/٢١٦٨-٢١٧٠.

(٢) الطبرى ١/٤/٢١٧٢.

(٣) الطبرى ١/٤/٢١٧٤-٢١٨٢.

أن يحتضنهم، وأن يعتبرهم متحفزين لقتال، ليدارى افتضاحهم فى ثباتهم ورجولتهم  
فيقول: أنا فئة كل مسلم<sup>(١)</sup>.

انحدر المثنى بجنده جريحا إلى أليس، فقد خشى أن يتعقبه بهمن واضعا فى تقديره  
قوة عدوه وقوته، وصح ما توقعه المثنى، فقد تجهز بهمن لتعقبه، إلا أن الأنباء واته بتجدد  
الاضطرابات فى المدائن، واختلاف الفرس فرقتين، إحداهما مع رستم والأخرى مع  
الفيروزان. فعاد بهمن إلى العاصمة، وخلف من ورائه جابان ومردان شاه فى كتيبة من  
الجند، فسارا يتعقبان المثنى، فخرج إليهما وأسرهما وأصحابهما، وضرب أعناقهم جميعا.  
فقد خدعا أبا عبيد يوم أسرا بالتمارق، وعادا إلى حرب المسلمين. وفى هذا الوقت كان  
عمر فى المدينة يحشد أمدادا من بجيلة وضبة، ومن ظهرت توبتهم من أهل الردة.  
وأدرك المثنى أن هذه الإمدادات تحتاج إلى وقت طويل حتى تصل إليه، وسرعان ما انتهى  
الاضطرابات فى العاصمة حتى يعود الجند تتقدمهم القبيلة، فبعث إلى من يليه من قبائل  
العرب فتوافوا إليه فى جمع عظيم، بينهم نصارى بنى النمر، ونقل عسكريه من أليس إلى  
مرج السباخ بين القادسية وخفان ليكون على تخوم العرب يلجأ إليهم عند الحاجة. وكان  
عمر يتصور حال المثنى وموقفه الدقيق، فضاعف جهده فى نذب الناس المتأقلين، بعدما  
رأوا فالة الجسر وفرارهم، فاستصلح عمر جرير بن عبدالله البجلي فى جمع من بجيلة،  
وحذا الناس حذو بجيلة، فانضم إليهم من فر يوم الجسر وكثير من الأزد، وبنى كنانة،  
وخلق كثير من مختلف القبائل، وتحمل الناس ومعهم نساؤهم وساروا يريدون المثنى.

وانتهى الخلاف بين رستم والفيروزان، وهالتهما أنباء الأمداد التى تسيير تباعا إلى  
العراق، فجمعا جندا عظيما، جعلوا عليه مهران الهمداني. وسار مهران فى جنده تتقدمه  
القبيلة، وفى خاطره أن يحرز نصرا ينسى الناس انتصار بهمن يوم الجسر. وقد علم المثنى  
بمسيره، فسار إلى البويب مكان الكوفة الحالية بعد أن كتب إلى أمراء الأمداد بموافاته فيها.  
وسار مهران حتى وقف قبالة جيش المسلمين، لا يفصل بينهما غير النهر. وأرسل يخير  
المسلمين فى العبور، ولم يكن المثنى قد نسى ما حدث لأبى عبيد. فعبر الفرس إلى  
البويب، وتعبثوا فى صفوف ثلاثة على كل فيل. ولم يكذب المسلمون بسمعون التكبيرية

(١) البلاخرى ص ٢٥٢.

الأولى حتى أعجلهم الفرس فشدوا عليهم، فاختلت صفوفهم، ولكنهم عادوا فشدوا، وترجحت المعركة حامية الوطيس حتى حمل المثنى على قائد الفرس فأزاله عن مكانه، ودخل في ميمنته. ورأى الفرس ما حدث فاندفعوا يحمون قائدهم، وتقهقر القلب تحت ضربات المسلمين إلى النهر يريدون العبور، فسبقهم المثنى والمسلمون فردوهم عنه. فازداد اضطرابهم بعد أن حصروا فقتلوا شر قتلة، حتى لقد سمى يوم البويب بيوم الأعراس، لأنهم أحصوا مائة رجل من المسلمين قتل كل منهم عشرة من الفرس، وأمعن المسلمون يتعقبون الفالة إلى الليل، وأحصوا القتلى مائة ألف من الفرس، تلوح عظامهم تلولا<sup>(١)</sup>.

انتصر المسلمون انتصارا مبينا، تظهروا فيه من عار هزيمتهم يوم الجسر، وإن كانوا فقدوا عددا كبيرا بين جريح وقتيل. ولم يضع المثنى وقتا، فأمر قواده فانطلقوا في السواد حتى بلغوا ساباط على مرأى من المدائن وجيوش الفرس تفر أمامهم فرار النعام. وانطلق هو فغزا الخنافس والأنبار أيام سوقهما فنال منهما غنما كثيرا. فبلغ المسلمون دجلة وأغاروا على قرية بغداد. وبلغوا تكريت يقتلون المقاتلة، ويسبون الذرية ويستاقون الأموال. ودان بهذه الغزوة العراق لسultan المسلمين كرة أخرى<sup>(٢)</sup>.

وتدبر الفرس موقفهم. فما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن، والخلافات عادت جذعة بين رستم والفيروزان، حتى ضج الفرس منهما، وأنذروهما إن لم يجتمعا على حرب المسلمين. وقد استجابا وتشاورا على تنصيب يزيد جرد بن شهريار، واجتمع الفرس عليه وتباروا في معونته، وأعدوا العدة للشار. وعلم المثنى بذلك، فكتب الخليفة الذي أبطأ رده، فلم ير المثنى بدا من أن يسحب كرة أخرى إلى تخوم شبه الجزيرة، فنزل بذي قار ينتظر مدد الخليفة.

وفي نفس الوقت بدأ يزدجرد حركة عامة للحشد، استعدادا لمعركة فاصلة فسمى جند الأماكن التي سيطر عليها المسلمون، فثارت هذه الأماكن وكفر أهل السواد، في الوقت الذي خرجت فيه الزحوف من المدائن، واهتزت الأرض بالمسلمين، وجاءهم أمر الخليفة بأن يتفرق المسلمون بين المياه التي تلى الأعاجم على حدود أرضهم مالح..

(١) الطبرى ١/٤/٢١٩٣-٢١٩٩.

(٢) الطبرى ١/٤/٢٢٠٢-٢٢٠٧.

مسالح، يغيث بعضهم بعضا، وكان قد كتب إلى عماله بالألا يدعوا فارسا أو ذا نجدة أو سلاح أو رأى إلا اجتنبوه. وما كاد يعود من الحج حتى وافاه الجند من كل صوب، وخرج فيهم إلى صرار في المحرم سنة ١٤هـ فعمسكرو بها، لا يدري ما يصنع. وعقد مؤتمرا عسكريا، ضم أولى الرأى الذين أجمعوا على أن يقيم عمر، وأن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ كسعد بن أبى وقاص وكان على صدقات هوازن وأجمع المسلمون عليه، فسرحه فى أربعة آلاف ممن اجتمع إليه. وكانت بعض الجموع قد لحقت قبله بالمنى، وقد كان بهذا الجيش خلاصة الأمة الإسلامية وقتئذ، إذ لم يدع عمر رئيسا ولا ذا رأى أو سلطة أو نجدة ولا شاعرا أو خطيبا إلا رماهم به، فضلا عن بضعة وسبعين بدريا، وثلاثمائة من أبناء الصحابة. وقبل أن يصل سعد مات المنى متأثرا بجراحه يوم الجسر ويوم البويب، تاركا وصيته لخلفه فى معالجة الفرس.

واستمرت المكاتبات بين سعد والخليفة ينصحه ويوجهه ويأمره بأن يرسل إلى الفرس من أهل المناظرة والرأى، فاختر قوما أجلاء، تحدثوا إلى يزيدجرد وقواده أحاديث شائقة وبارعة عن روح الإسلام، التى لم يستطع الفرس إدراك أثرها فى حياة العرب. وفصل رستم من المدائن فى تعبئة كبرى وعدد جنوده زهاء مائة وعشرين ألفا، وسارت طلائعه حتى وصلت الحيرة فنزلت بها، وسار رستم حتى أتى النجف فعمسكرو بها، والطلائع تسير أمامه، ولم يزل الجيشان يتقاربان حتى وقف رستم على العقيق، وسعد أمامه.

والتقى الجيشان على الدعاء والمكاتبات حتى خرص صوت المنطق، وأجمع رستم أمره على العبور، وكان سعد قد عبأ جيشه، فأقام بأعلى القصر لمرض كان به، يشرف على المعركة من عل، ويرمى بالرقاع إلى خالد بن عرفطة وهو أسفل منه.

وكان وراء الفرس العقيق، ووراء المسلمين الخندق، وميدان المعركة بين ذلك، وعند الظهر أنشب أهل النجدات القتال، وأشعل الرجّاز أوار الحماس. وكان سعد قد أمر الشماخ، والحطيئة، وعبدة بن الطيب، والمغيرة بن شعبة، وعاصم بن عمرو، وعمر بن معد يكرب وغيرهم ليقوموا فى الناس بما يحق عليهم، يذكرونهم ويحرضونهم على القتال<sup>(١)</sup>.

(١) الفاروق، هيكى ص ١٦٨.

وأقبل أهل فارس عليهم في مثل حماسهم، يلبون نداء من يريدون نزالهم. وكان غالب بن عبدالله الأسدي في مقدمة من خرجوا ييارزون، وأخذ يرتجز، فخرج إليه هرمز فأسره غالب وجاء به سعدا، ورجع إلى المطاردة. وبينما هو يرتجز طارد فارسيا نفر منه. فلقى فارسا معه بغل، ففر الفارس، فاستاق عاصم بن عمرو البغل والرجل، فإذا الرجل خبار الملك، وإذا في الرحل طعام رستم، فنقله سعد للمسلمين ليأكلوه.

وكبر سعد التكبيرة الرابعة - وكان القراءة قد انتهوا من سورة الأنفال - فالتقى الجيشان. وأبلى أبطال المسلمين بلاء لم يعرف له نظير. ورأى الفرس بنى بجيلة وعليهم جرير بن عبدالله يصلون ويجولون، فوجهوا إليهم ثلاثة عشر فيلا، حملوا عليهم ففرت خيلهم نفارا، وبقي الرجال وتكاد القبلة تبيدهم. ورأى سعد ما أصاب بجيلة، فأرسل إلى بنى أسد ليذبوا عنهم، فخرج إليهم طليحة بن خويلد وجماعة من قبيلته، فشدوا عليهم، فمازالوا يطعنونهم حتى حبسوا القبلة عنهم. لكن القبلة عادت فحملت عليهم، فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو ليرى رأيه في القبلة، فنادى عاصم الرماة ليذبو ركبان القبلة بالنبل، فاستدبروها وقطعوا وضنها وضربوها بالنبل، فارتفع عواؤها وألقت بركبانها فقتلوا. ونفس عن أسد وعن بجيلة جميعا، بعد أن قتل من أسد وحدها أكثر من خمسمائة<sup>(١)</sup>.

وظل سعد مشفقا من مصير المعركة، لما كان يراه من شدة الفرس وكثرة عددهم وفعال فيلتهم. وانقضى النهار وغربت الشمس والقتال لا يزال حاميا وطيسه. فلما ذهبت هداة من الليل رجع الجيشان كل إلى مواقعه، وكل يحسب للغد حسابه، والمسلمون أشد لهذا الغد حسابا، بعدما نزل بهم في اليوم الأول من كوارث.

فلما تنفس الصبح شغل العرب والفرس بدفن القتلى ونقل الجرحى، وقد دفن المسلمون قتلاهم بالعذيب، ونقلوا الجرحى إلى الناء ليقمن على العناية بهم. وبينما هؤلاء وأولئك في شغل بهذا الأمر كان هاشم بن عتبة بن أبي وقاص يغذ السير في ستة آلاف من المسلمين الذين فصلوا من الشام تنفيذًا لأمر عمر إلى أبي عبيدة بأن يرد جيش العراق إليه بعد أن ينصره الله بدمشق. فلما فتحت دمشق وانتصر المسلمون بفحل انطلقوا مددا لسعد، وعلى مقدمتهم القعقاع في ألف من شجعان المسلمين، وعجله هاشم أمامه

(١) مروج الذهب، ج٢، ص٢٠٥.

أدرك سعداً قبل فوات الوقت. وأراد القعقاع أن يشد عزائم المحاربين في هذه الواقعة الخطيرة، فقسم رجاله الألف عشر فرق، وعهد إليهم ألا تسير فرقة حتى تكون الفرقة التي سبقتها على مدى البصر، ثم سار على رأس الفرقة الأولى، ثم تقدم الصفوف يستفتح القتال، فخرج إليه بهمن جاذويه، فصاح القعقاع: بالشارت أبي عبيد!! وانقض عليه فأورده حنقه، وتنشط الناس وهم يرون صنيع القعقاع ولم يروا الفيلة بينهم. وبدأت فرق القعقاع تغدو، والمسلمون يكبرون، حتى خيل إلى الفرس أن لا آخر لها، وأبلى القعقاع وأبو محجن الثقفي في هذا اليوم بلاء عجيبا، فقد حمل القعقاع ثلاثا وثلاثين حملة يقتل في كل منها رجلا<sup>(١)</sup>. وصنع أبو محجن أفاعيل بالفرس تكاد تكون أساطير.

واتصل القتال إلى منتصف الليل، والمسلمون يرون فيه الظفر. وقد رفه عن المسلمين غياب الفيلة، وأن بنى عم القعقاع برقعوا إبلا وجللوا ودفعوها تحمل على الفرس كأنها الفيلة، فolt خيولهم نضارا من منظرها، ولقيت منها ما لقيت خيول المسلمين يوم «أرمات» فركبتهم قوات المسلمين، وأعملوا فيها السيوف قتلا وبترا. وتنصف الليل والمسلمون يزاحفون عدوهم يريدون إجلاءه عن مواقعه فيصيرون منه ويكثرون القتل فيه، ويكادون يظفرون به لولا كثرة عدده وشدة مقاومته. ولم يجد كل من الفريقين بدا من أن يرجع إلى عسكره، يعيد تنظيم صفوفه، ليعود في الصباح إلى الزحف ابتغاء الظفر.

واطمأن سعد ونام، فقد وجد الناس مغتطين، ينتمى كل منهم إلى قبيلته. أما القعقاع بن عمرو فبات ليله يسرب أصحابه الذين جاءوا معه من الشام إلى المكان الذي كانوا فيه بالصحراء صبح أغواث، وأمرهم أن يقبلوا مائة مائة إذا طلعت الشمس، على نحو ما فعلوه في أمهم، فإن أدركهم هاشم بن عتبة وجاء بمن معه فذاك، وإلا فقد جددوا للناس رجاء في المدد. وأصبح الناس والجيشان في مواقفهم، وبين الصفين ألفان من المسلمين بين قتيل وجريح، وعشرة آلاف من الفرس. فدفن كل جيش قتلاه ونقل جرحاه. ووقف القعقاع في المؤخرة حين طلعت الشمس ينظر إلى ناحية الصحراء، فلما بدأت خيله تقبل كبر وكبر الناس معه. وكان هاشم قد أدرك رجال القعقاع وعرف ما صنع صاحبه، فقسم رجاله فرقا تتلاحق دراكا، فبلغ القادسية حين أخذ المسلمون مصافهم

(١) المرجع السابق.

للقتال، فلما رآه الناس ورآهم كبر وكبروا معه، واندفَع هاشم إلى القلب حتى بلغ النهر وهو يرمى العدو، ثم عاد فكرر فعله فلم يجرؤ أحد على مصالته. ولم يضعض هذا من عزم الفرس، فقد أصلحوا توابيت الفيلة واقتحموا بها المعركة. ومنذ طلعت الشمس ورآها سعد تفعل الأفاعيل وتفرق بين الكتائب سأل جماعة من الفرس الذين أسلموا عن مقاتلتها. فقالوا: مشافرها وعيونها. وقد تمكن القعقاع وأخوه عاصم من الفيل الأبيض فوضعا رمحيهما في عينيه، وكذلك فعل حمال والربيل بالفيل الأجرى. وهرولت الفيلة فأحدثت هرجا ومرجا بين صفوف الفرس، وتوالت في العتيق وقد ألقت ركبائها، وتخطت الماء مدبرة ولم تعقب.

وواصل الجيشان القتال، وكأنا دار بخواطر الجند من الفرس والعرب ألا يضعوا السلاح حتى يحسم بينهم. وهذا وطيس القتال حين أقبل الليل، وقدر سعد أن الجيشين سيقضيانه في الاستعداد ليوم رابع، ولكنه خشى أن يأتيه العدو من مخاضة أسفل العسكر، فأرسل طليحة وعمرو بن معديكرب في جماعة وأمرهما بأن يقيما فيها حتى يأتيهما أمره، وسولت لهما نفساهما أن يخوضاها فيأتي العدو من خلفه، واختلفا كيف يفعلان، فأخذ طليحة مكانه وراء العسكر، وكبر ثلاث تكبيرات، ارتاع لها أهل فارس فظنوا أن جيش المسلمين أزمع الغدر بهم، وظن المسلمون أن الأعاجم فتكوا برجالهم، فأغار عمرو على جماعة من الفرس أسفل المخاضة، فلم يعد لديهم ريب في غدر المسلمين بهم فزحفوا، ورأى القعقاع صنعهم فزاحفهم دون استئذان سعد، ولكن سعدا يظل فيراه يزاحفهم فيقول: اللهم اغفرها له وانصره، فقد أذنت له وإن لم يستأذني، وتبعه المسلمون دون انتظار لتكبير سعد، واستقبلوا الفرس بالسيوف وخالطوهم. فكان للسيوف قعقة، والمقاتلون لا يتكلمون بل يصيحون، والقتال يشتد ويحمى وطيسه كلما تقدم الليل. ويات الجيشان يقتتلان أشد قتال وأقساه، ولم يغمض لأحد من الجند تلك الليلة جفن. فلما أصبح الصباح جعل المسلمون يتمون إلى قبائلهم، ولم يكن النصر قد عقد لواءه لأحد من الفريقين. وسار القعقاع في الناس يقول: إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعة واحملوا، فإن النصر مع الصبر، فحمل المسلمون حتى الظهر في جلال باسل، حتى بدأت صفوف الفرس تضطرب وتراجع الفيرزان والهرمزان في المجنبتين، فانفرج القلب وهبت ريح أطارت طيارة رستم إلى العتيق، وزحف القعقاع بمن معه إلى

سريره، ففر رستم إلى النهر واقتحم وراءه نفر من فرسان المسلمين، وصعد أحدهم على سريره يصيح: قتلت رستم ورب الكعبة!! إلى إلى، وطاف به الجند يهللون ويكبرون. وأسقط في يد الأعاجم ووهنت قوتهم، وانهد ركنهم، وقام الجالينوس يعبر بقومه النهر، لكن الردم انهار بهم فى النهر، فغرق بانتهاره ثلاثون ألف فارس مقتربين بالسلاسل، وانهزم جيش الفرس وانطلقت فلوله يولون الأدبار.

وأمر سعد فخرج القعقاع وشرحيل وزهرة بن حوية يتعقبونهم، وأدرك زهرة الجالينوس يجمع المهزمين فقتله. وجعل المسلمون يقتلون من يلوونهم من الفرس ويأسرونهم دون مقاومة وجمع الناس الأسلاب والأموال فإذا هى شىء لا يحيط به خيال عربى، حتى لقد بلغ عطاء الفارس ستة آلاف، والراجل ألفين. وزاد أهل البلاء كل واحد منهم خمسمائة - فضلا عن الخمس - وما بقى بعد ذلك كثير، نحاه سعد ليعث به إلى المدينة، وأمر عمر بتوزيعه فيمن لحق بسعد ولم يشهد الواقعة، وفى حملة القرآن.

وهكذا انتهت المعركة إلى النصر الحاسم، حين كان الناس فى كل الأرجاء من شبه الجزيرة يتطلعون ببصائرهم وقلوبهم إلى ناحيتها، وهم على أحر من الجمر شوقا لمعرفة أنبائها من العذيب إلى عدن، ومن الأبله إلى بيت المقدس، يتربصون وقعة القادسية، يرون أن ثبات ملكهم وزواله بها، وقد بعث أهل كل بلدة قاصدا يكشف ما يكون من خبرهم<sup>(١)</sup>.

انطلق المسلمون فى وادى العراق من أعلاه إلى أسفله، فعاد الناس جميعا إلى طاعتهم، معتردين عن ولائهم للفرس بأنهم غلبوا على أمرهم، وسعد يعذرهم تألفا لهم، وحرصا على أن تسود الطمانينة ربوعهم. فأقربت قبائل العرب المنتشرة فيما بين النهرين يعلنون إيمانهم بالله وبرسوله. وقد مكث سعد بالقادسية شهر المحرم سنة ١٥هـ، وارتحل فى نهايته بجيشه الذى أصبح معظمه فرسانا لكثرة ما غنموا من الخيل، ولقيتهم فى سيرهم فلول القادسية، وعليهم الهرمزان فهزمهم المسلمون. وبلغ سعدا تجمع فلول الفرس ببابل، فسار إليهم وهزمهم. وأقام ببابل حيث سير من هناك مقدمته مع زهرة بن حوية إلى بهر سير أو المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربى، فحاصرها شهرين وفتحها الله

(١) الطبرى ١/٥/٢٢٦٤.

عليهم، ففر أهلها إلى الجهة الشرقية حيث المدائن القصوى - معقل الساسانيين وعاصمتهم - وأصبح من المحتم على زهرة أن يعبر دجلة، واستطاع بمعاونة بعض أهل البلاد أن يصل إلى مخاضة عبر خلالها المسلمون خوفاً، وفي سرعة أذهلت أهل المدائن، الذين فوجئوا بالمسلمين دون أن يروا سفينا يقلهم إليهم، فتركوا المدائن وفروا، وكان يزدجرد قد سبقهم بالفرار إلى حلوان، وفي المدائن غنم المسلمون أموال كسرى وخزائنه وجواهره<sup>(١)</sup>.

ويفتح المدائن تنتهي المرحلة الثانية في هذه الفتوح، من الخطة التي رسمها أبو بكر، وتبدأ المرحلة الثالثة.

### المرحلة الثالثة:

أقام المسلمون بالمدائن ما يزيد على سنة، لاحظ خلالها الخليفة عمر انتفاء التواؤم بين المسلمين وبيئتهم الجديدة هذه، فكان أن أمر بارتياح الأرض، وباختطاط البصرة والكوفة. وقد تم للمسلمين تمصير الكوفة في المحرم من سنة ١٧هـ. وكانت أول أمرها مبنية بالقصب، وبنيت بعد ذلك باللبن بعد تعرضها للحريق. وفي نفس العام بنيت الأبنية بالبصرة التي كان المسلمون قد نزلوها في أواخر سنة ١٣هـ، وأوائل سنة ١٤هـ، ولم يتم تخطيطها إلا مع الكوفة.

ومنذ هذا التاريخ صارت الكوفة والبصرة مركزين حربيين، تفصل بينهما الجنود لحرب الفرس، وصار لكل منها جند خاص، ومناطق بعينها يناط بها فتحها وتنسب إليها. وصار المسلمون يفدون على عمر يشكون ضيق منازلهم بهم، ويطلبون السماح لهم بضم مناطق بعينها إليهم دون غيرهم<sup>(٢)</sup>.

وتكاد الفتوح في أطراف فارس تكون نتيجة مجهودات أهل هذين المصرين، بالإضافة إلى البحرين التي انطلق منها المسلمون لغزو فارس وكرمان وكان أول ذلك عمل العلاء الحضرمي. في مغامرته التي عضده فيها أهل البصرة في طاووس<sup>(٣)</sup>، ثم في موقعة أصطخر التي تولاها الحكم بن العاص أواخر عهد عمر، وتمخض عنها فتح كerman<sup>(٤)</sup>.

(١) الطبرى ١/٥/٢٤٣٤.

(٢) الطبرى ١/٥/٣٥٣٨.

(٣) الطبرى ١/٥/٢٥٤٥.

(٤) الطبرى ١/٥/٢٦٩٨.

وأسهمت الكوفة في إخضاع الجزيرة التي كانت بمثابة قاعدة حربية لحلفاء الروم من نصارى العرب، مما رفه عن المجاهدين في الشام<sup>(١)</sup>. وتتابعت فتوح أهل الكوفة، ففتحوا الري وأذربيجان وأرمينية، وطبرستان، وجرجان<sup>(٢)</sup>. بينما فتح أهل البصرة الأهواز وتستر ورامهرمز، وجند يسابور<sup>(٣)</sup>.

وليس يعنى استقرار الجند الإسلامى فى هذين المصرين وفتحهما لهذه المناطق انتهاء المقاومة الفارسية الرسمية، فإن المنهزمين فى المدائن فروا إلى جلولاء، وأزمعوا أن يستميتوا فى درء المسلمين والتفانى فى ذلك، فاحتفروا خندقا حول جلولاء، أحاطوه بحسك الخشب والحديد، وقاموا ينتظرون المسلمين، وأمر عمر سعدا بأن يسرح إليهم هاشم بن عتبة بن أبى وقاس، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو. فسار هاشم فى اثنى عشر ألفا حتى نزل على الفرس. وكان كسرى قد أمد قواته من حلوان بالأموال والرجال. وأحاط المسلمون بالحصن، وزاحفوا الفرس ثمانين زحفا لم تسفر عن شيء، إلى أن اقتحم المسلمون الحصن فى هجوم عارم، ترك الفرس بعده المدينة للمسلمين<sup>(٤)</sup>.

وبعد أن فر الفرس أرسل هاشم بالقعقاع على رأس حملة إلى حلوان، على حافة المرتفعات الفارسية بجبال الصقر<sup>(٥)</sup> تتبع الفارين واحتلها، بعد أن فر يزدجرد إلى الري<sup>(٥)</sup>.

وأخذ سعد يسط راية الإسلام فى أنحاء الجزيرة وفارس، فوجه عبدالله بن المعتم إلى تكريت بالجزيرة، فاستمال من بها من إياد وتغلب، والنمر، ووجه بضرار بن الخطاب إلى مامبذان، حيث كان آذين أحد عظماء فارس قد جمع جمعا عظيما من الفرس والعرب وخرج بهم إلى السهل، وتمكن بضرار من قتله، والاستيلاء على الناحية<sup>(٦)</sup>.

(١) ياقوت ج ٢ ص ٧٤.

(٢) الطبرى ١/٥/٢٨٠٥، ٢٨٣٦.

(٣) الطبرى ١/٥/٣٥٣٤.

(٤) الطبرى ج ٥ / ٢٤٧٢.

(٥) فيليب حتى وآخرون ص ٢١٢.

(٦) ياقوت ج ٤ ص ٣٩٣.

كما أرسل عمرو بن مالك الزهري إلى «هيت» و«قرقيسيا» فاضطر أهلها إلى النزول على الجزية<sup>(١)</sup>. وبهذا صار السواد كله بيد المسلمين، فمهدوا طرق إدارته، وأقاموا الجند مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال.

وبعد سقوط السواد، وهزيمة الفرس في جلولاء، انهارت خطوط المقاومة الفارسية إلا أن بقاء يزدجرد - ذلك الملك الشاب - كان لا يزال رمزا حيا للوطن السليبي، فجمع حوله الفلول، وعلى الرغم من أن الخليفة كان يرى الاقتصار على ما بيد المسلمين من سواد العراق، ويتمنى لو كان بين السواد والجبل سد يفصل بين العرب والفرس، فإن المسلمين لم يجدوا بدا من مطاردة هذا الرمزا، فظلوا يتعقبون يزدجرد، لأنه الذي يبعث المقاومة. «ولن يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا، فلنصح في بلادهم حتى نزيله عن فارس، ونخرجه عن مملكته وزعامته، فينقطع رجاء أهل فارس»<sup>(٢)</sup>.

وكان يزدجرد قد فر من حلوان، أمام هاشم بن عتبة إلى إقليم فارس، جنوبي إيران، حيث تحول إلى الري ومنها إلى قرميسين، يطارده المسلمون حتى استقر في نهاوند. وفي نهاوند كان اهتمام عمر أشد من اهتمامه بالقادسية، حتى لقد راودته نفسه الخروج إليها، ولكن المسلمين رأوا له خلاف ما رأى لنفسه. وكذلك كان اهتمام الفرس بها عظيما، إذ كتب يزدجرد إلى عماله، فاجتمع من الفرس من أهل الجبال - من بين الباب إلى حلوان - ثلاثون ألف مقاتل، ومن بين سجستان إلى فارس وحلوان ستون ألفا، ومن بين خراسان إلى حلوان ستون ألفا آخر. واجتمعوا جميعا إلى الفيرزان<sup>(٣)</sup>.

وتحصن الفرس بالحصون والخنادق. وكان على المسلمين النعمان بن مقرن، الذي عقد مؤتمرا عسكريا للتشاور في أمر الحرب، شهده أبطال المسلمين كالقعقاع وطليحة وعمرو بن معد يكرب وغيرهم. وانتهى الرأي إلى أن يبدأ القعقاع القتال حتى يخرج إليه الفرس من حصونهم وخنادقهم فيقتلهم المسلمون. وتم هذا الترتيب الحربي كما قدر له. وبدأ القتال واشتد، وقتل قائد المسلمين، وأخفى خبر استشهاده، واستلم حذيفة بن اليمان الراية، وما أتى المساء حتى أتت معه الهزيمة للفرس، ودخل المسلمون نهاوند واحتواها حولها.

(١) ياقوت ج ٢ ص ٦٥.

(٢) الطبري ١/٥/١/٢٥٥١.

(٣) الطبري ١/٥/١/٢٦٠٨.

وقد سميت هذه الموقعة بفتح الفتوح، لأنه لم يكن بعدها كبير حرب، وتابع القعقاع المنهزمين حتى همدان، فاحتواها وملكها المسلمون<sup>(١)</sup>.

وقد وضع سقوط نهاوند بعد كل هذا الحشد الذي حشده الفرس نهاية للمقاومة الفارسية الرسمية، وأصبحت المقاومة جهودا فردية، يقوم بها حكام المقاطعات في غير تساند أو نظام لحماية «يزدجرد» فحسب. وعملا بنصيحة الأحنف بن قيس في وجوب القضاء على يزيدجرد أذن عمر للمسلمين بالانسياع في بلاد الفرس لقطع دابر الشعب، حتى يئس الملك من عودة ملكه إليه، فلا يظل شوكة في جنب المسلمين، ويئس الفرس فلا يجتمعون حوله.

عين عمر رؤساء الجند لافتتاح فارس، وأرسل إليهم بالألوية، الأحنف بن قيس إلى خراسان، وعثمان بن أبي العاص الثقفي إلى أصطخر، وسارية بن زعيم الكتاني إلى فاسودراخرد، وسهيل بن عدى إلى كرمان، وعاصم بن عمرو التميمي إلى سجستان، والحكم بن عمير التغلبي إلى مكران.

وكان يزيدجرد قد لجأ إلى أصفهان من نهاوند، فتابع المسلمون تقدمهم حتى غلبوا عليها. فكان أن تحدر هو إلى أصطخر<sup>(٢)</sup>، ولكنها لم تكن الملجأ الحصين، إذ كان المسلمون يتقدمون من البصرة إلى الأهواز وخوزستان، ويقفزون من البحرين إلى الشاطئ الشرقي المقابل للخليج الفارسي، فغادر يزيدجرد أصطخر إلى المقاطعات العليا من طبرستان، يلبي دعوة جاءته من مرزبانها<sup>(٣)</sup>.

وبعد أن يحتل المسلمون أصطخر ينساحون في مواطن متفرقة عن إذن عمر. وتترى مدن خراسان تتساقط في يدي الأحنف . . الطيبين . . فهراء . . فمرو الشاهجان . . فنيسابور. ثم يهرب يزيدجرد إلى خاقان، ملك الترك فيما وراء النهر<sup>(٤)</sup>.

ولا يلبث ولاء أمراء المقاطعات ليزدجرد أن يتناقص بازدياد تفكيرهم في مطامعهم الشخصية، والرغبة في الاحتفاظ بنفودهم. وبعد سلسلة طويلة من التنقلات يقتل يزيدجرد في مرو، ويقتله يسقط التاج الساساني إلى الأبد.

(١) ياقوت ج ٤ ص ٨٣٨.

(٢) الطبرى ٢٥٦٢/٥/١.

(٣) بروكلمان/ تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١٢٦.

(٤) ياقوت ج ٤ ص ٤٠٩.

وكان المسلمون قد بلغوا في تبعهم ليزدجرد إلى حدود النهر، فكتب عمر إلى الأحنف بطل هذه الوثبة ألا يجوز النهر، وبأن يقتصر على ما دونه<sup>(١)</sup>، ولكن انسياح المسلمين لم يتوقف، لأن انتقاض البلدان والمناطق المفتوحة لم يتوقف هو الآخر، فلم يبق إقليم لم يتنقض بعد فتحه، وبخاصة في أطراف المنطقة الشرقية بخراسان، التي اشتد انتقاضها وكفرها في خلافة عثمان<sup>(٢)</sup>.

وفي الوقت الذي كان فيه المسلمون يستشرفون نهر جيحون كانت جيوش أخرى تجوز الخليج الفارسي، لتتاح في منطقة فارس وسواحل كرمان، ثم تتقدم بعد ذلك إلى مكران، حتى تبلغ قريبا من السند. ويذكر أن عمر كان قد أوصى ألا يتقدم المسلمون إلى كرمان، بعد أن أخبره صحار العبدى بسوئها. ولكن الحكم بن عمير التغلبي يتقدم إليها ويجوزها. وتوالت ظروف الانتقاض والثورة، فلم يستطع المسلمون الإذعان لهذا الأمر ولم يقنعوا بما في أيديهم.

وتكاد تذهب خلافة عثمان رضى الله عنه كلها في محاولة تأكيد الفتح الإسلامى، والمحافظة على الثغور وإعادة من شق العصا إلى الطاعة، إذا ما استئينا فتح طبرستان، الذى تم على يد سعيد بن أبى العاص سنة ٢٩هـ. فهذه أذربيجان تنتقض فى إمارة الوليد ابن عقبة سنة ٢٥هـ فيغزوها ويعيدها إلى ما كانت عليه<sup>(٣)</sup>. وهذه فارس تنتقض فى ولاية عبدالله بن عامر على البصرة، ويقتل أهلها أميرهم عبيد الله بن معمر، فيسير إليهم عبدالله ابن عامر ويستردها<sup>(٤)</sup>.

وأخذ المسلمون يتدفقون لاستثمار انتصاراتهم فى خراسان، معبرين عن مدى الانطلاق الروحى، راغبين فى القضاء على المقاومات والانتقاضات. فأخذنا نسمع عن أول من عبر النهر، كعبد الله بن عامر والحكم بن عمرو الغفارى وسعيد بن عثمان، الذى ولاه معاوية خراسان<sup>(٥)</sup>. إلى أن يستكمل فتح هذه المنطقة قتيبة بن مسلم.

(١) الطبرى ١/٥/٢٦٨٥.

(٢) الطبرى ١/٥/٢٦٨٩.

(٣) ياقوت ج ١ ص ١٧٣.

(٤) ياقوت ج ٢ ص ٤١٢.

(٥) البلاذرى ص ٤٠٨، ٤١٢.

وهكذا تصير إلى العرب تلك المنطقة، التي يحدها من الغرب نهر الفرات، ومن الشرق نهر جيحون والسند، ومن الجنوب المحيط الهندي، ومن الشمال أرمينية وطبرستان فى فترة وجيزة من الزمن. برغم أن مثل هذه الأعمال العظيمة لا تقاس بالفترات ولا بالسنين.

وقد رافق الشعر المسلمين فى تقدمهم خطوة بخطوة، طوال هذا الطريق المشرق، وواكب المد المنطلق إلى غايته، كما سنرى فيما بعد.

## ٢- فتوح الشام

كان لموقع شبه الجزيرة العربية وعلاقات الجوار واللغة والقراة والدم التي ربطت بين عرب الجزيرة والقبائل الضاربة فى شمالها أكبر الأثر فى اتجاه المسلمين فى انطلاقهم إلى بطائح العراق، وإلى مشارف الشام بعد ذلك. وهذه العلاقات قديمة ويعيدة وموغلة فى التاريخ، وترجع إلى ذلك اليوم الذى بسط فيه عرب الجنوب نفوذهم على التجارة على طول شواطئ البحر المتوسط الشرقية، وعن طريق سلسلة من المحطات التجارية المنتشرة من اليمن إلى الشام. وكانت سيطرة العرب على المتاجر سببا فى خلق علاقات وثيقة بين العرب والقوى السياسية المحيطة بهم وقتئذ. فبدأ تنافس خطير حول انتزاع هذه السيادة التجارية منهم، واستبقائها فيما بينهم وبين الروم فحسب، عندما بسط هؤلاء سلطانهم على البحر المتوسط بالامتلاء على مصر.

وكانت محاولات الروم فى هذا السيل تصاب بالفشل حتى القرن الخامس الميلادى، ولم يجدوا فرصتهم إلا فى عهد الإمبراطور جوستنيان، (٥١٨ - ٥٢٧م) عندما سيطرت فارس على الطرق التجارية البرية، مما دفعهم إلى التدخل فى شئون عرب الجنوب، متذرعين بالصراع الدينى، الذى نشب بين اليهودية والمسيحية فى عهد ذى نواس، وأتيح لهم التدخل عن طريق أحلافهم الأحباش بعد مذبححة نجران<sup>(١)</sup>. ولكن العرب استطاعوا القضاء على النفوذ الحبشى الرومى فى عهد سيف بن ذى يزن، الذى استعان بكسرى أنوشروان سنة ٥٧٥م فى طردهم.

(١) التيجان فى ملوك حمير/ ص ٢٠١.

وأرض الشام تعتبر امتدادا لشمالي شبه الجزيرة العربية، مما دعا عرب الشمال إلى اتخاذها دار هجرة، إذ إن طبيعة بلادهم كانت السبب في الدفع بهم إلى الاحتكاك بمن يصاقبونهم، والزحف وراء المناطق الخصبة التي تلى بلادهم شمالا على أطراف الهلال الخصيب، انتهازا للإغارة على بلدانه والتسلل إليها، حيث ينعمون بالخصب والخير، فلم تكن الهجرات إلى الشام تنقطع عبر الزمن. وأشهر هذه الهجرات ما حدث بعد زوال السيطرة التجارية لليمن، إذ ساءت أحوالها الاقتصادية، وتلا ذلك تصدع سد مأرب العظيم، فاتجهت القبائل المهاجرة تزحف إلى الشام، كما فعلت جهينة وكلب وقضاعة التي نزلت بالبادية، وعاملة وجذام اللتان نزلتا في حدود فلسطين، وغسان التي استقرت في منطقة حوران في شمال بلاد العرب.

ورأى الروم في هذه القبيلة مثلما رأى الفرس في لخم، واستعانوا بها في تأسيس إمارة تضمن لهم الدفاع عن حدودهم ضد هجمات الفرس والقبائل العربية، التي تحترف الإغارة والسلب. واتسمت العلاقة بين الروم والغساسنة بالتأرجح، بسبب عوامل الكبت والتضييق التي انتهجها الروم مع حلفائهم وصنائعهم، إثر إثارة مشكلة الخلاف المذهبي بينهم، فقد اعتنق الغساسنة المذهب المونوفيزيتي، بينما كان سادتهم يدينون بالملكانية، فتعرض غير أمير منهم للسجن والاضطهاد، كما حدث للمنذر بن الحارث الذي غدروا به ونفوه إلى صقلية<sup>(١)</sup>.

وكانت إمارة الغساسنة معبرا لكثير من التأثيرات العقلية والحضارية، عبرت عن طريقها إلى العرب، ووفد إليها من شعرائهم في الجاهلية من كانوا يجدون في أمرائها أهلا لمدايحهم ومنادمتهم، كالنابغة الذبياني وعلقمة، وحسان بن ثابت. وترك هؤلاء الأمراء في الأدب العربي فضلا عن هذا آثارا قصصية وأسطورية، كالتى تروى عن دروع امرئ القيس، ومناديات حسان لجبل بن الأيهم وغير ذلك.

وعندما تبلورت زعامة مكة لشبه الجزيرة العربية، وتبوأ مركز الصدارة على سائر مدن الحجاز، وسيطرت على مقدراتها، واستحقت لقب أم القرى ببيتها العتيق الذى يفد إليه كل العرب من كل صوب أخذت مكة تنظم التجارة، وتستعيد للعرب السيطرة على

(١) امرأة غسان ص ٣١، ٣٢.

طرقها بين اليمن والشام. فنظم هاشم رحلاتها، وعقد مع الدول والممالك المجاورة للحجاز معاهدات ومحالفات، كتلك التي عقدها مع الروم والغساسنة، وأصبح لقريش بمقتضاها حق التجوال في الشام<sup>(١)</sup>. وبطبيعة الحال أفاد العرب من هذه الصلات التجارية الشيء الكثير. ولا بد أن يكون منهم من ثقف لغة عملائهم بالضرورة، فقد كان التجار من رؤساء العرب وكبرائهم، وأجدرهم بنقل مدنية الروم وحضارتهم وطرق معيشتهم وأخبارهم.

ولما بدأ الصراع بين دولتي الفرس والروم في مستهل القرن السابع الميلادي كان العرب يتابعون أحداث هذا الصراع المرير وتطوراته، وظهور إحداهما على الأخرى. ومألت أصداء هذه الأحداث بلاد العرب بفضل الطريق التجاري، الممتد بين اليمن وفلسطين وسوريا ومصر. فكان العرب يقفون على أخبارها أولا بأول. وأخذ المسلمون يظهرون أمام المشركين الذين كانوا يقفون بعواطفهم إلى جانب الفرس الوثنيين ضد الروم بوصفهم أصحاب كتاب كالمسلمين بمظهر الآمل في انتصار الروم، وأنهم المظفرون في هذا الصراع عما قريب.

ولم تكن أنباء الصراع هي كل ما يثير اهتمام المسلمين، وإنما يبدو أنهم كانوا يقفون أيضا على حوادث الاضطهاد والتعذيب التي أخذت ترزح تحتها البلدان الخاضعة لحكم الروم، من جراء فرض «هرقل» مذهبه الجديد، الذي يدعو إلى التوفيق بين الملكانيين واليعاقبة، محاولا بشتى الوسائل حمل رعاياه عليه، ليقضى على عوامل الفرقة المذهبية التي كان يخشى اتخاذها ذريعة للانفصال عن جسم الدولة الرومية، ولكن النتيجة كانت عكس ما تصور «هرقل».

فوقف أتباع المذهبين المختلفين موقفا واحدا ضده، ورفضوا الدخول في مذهبه الذي عدوه زيفا وتضليلا، فاشتعلت نيران الفتنة. وانتشرت حركات التمرد والمقاومة السرية. ولم يتمكن هرقل من إخمادها بوسائل العنف والقهر والقمع، وبات الناس في أقاليم الدولة يتمنون من أعماقهم زوال حكم الروم عنهم، ليحرروا عقائدهم وأرزاقهم من قهرهم.

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٠٨٩.

وفي هذا الوقت كان النبي العربي ﷺ ينشر دعوته في بلاد العرب، داعياً إلى الوحدة والإخاء والمساواة. ولم ينظر الروم إلى الحركة الإسلامية نظرة جدية، وساعد هذا على أن الروم خرجوا من صراعهم مع الفرس معتدين بأنفسهم اعتداداً كبيراً، فلم يحاولوا أن يفهموا مدى الأثر الذي أحدثه الدين الجديد في العرب، في حين كان هؤلاء يتربصون بهم ويأخبارهم التي تخبئهم مع القوافل، وعن طريق محطات التجارة، ومع التجار المسيحيين واليهود والعرب<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن الرسول ﷺ وجد في هذا الخلاف المذهبي مشجعاً له على أن يرسل برساتله إلى «هرقل» و«المقوقس» يدعوهما إلى الإسلام، ذلك الدين الذي يدعو إلى عقيدة جوهرها وحدانية الله، جعلته أقرب إلى نفوس أتباع الطبيعة الواحدة المسيحيين من قربه إلى نفوس الروم قادة العالم المسيحي، المعتنقين لمذهب الطبيعتين<sup>(٢)</sup>. وما لا شك فيه أن هذا يفسر السرعة والتجاح اللذين تمت بهما فتوح الشام، ووقوف دولة الروم مذهولة حيال تدفق تيارها العنيد إذا ما قورنت بفتوح العراق وفارس، إذ إن العقيدة الإسلامية كانت النور الذي أضاء للجيوش الإسلامية سبيلها في بلاد المونوفيزيتين، ونزلت برداً وسلاماً على سكانها، وسط جحيم اضطهاد الروم الملكانيين<sup>(٣)</sup>.

ولم يحسن الروم الرد على دعوة النبي ﷺ، وفعل صنائعهم الغسامة مثل صنعهم وأنكى، فقتل أميرهم شرحبيل بن عمر رسول النبي ﷺ إليه في بصرى، ولم يكن المسلمون في حالة تسمح لهم برد هذه الإهانة. وانتظر النبي ﷺ حتى السنة الثامنة للهجرة وأرسل زيد بن حارثة في بعث مكون من ثلاثة آلاف رجل إلى الجهات الشمالية الغربية من بلاد العرب<sup>(٤)</sup>.

ولم يكن هدف هذا البعث الرد على إهانة المسلمين أو الشار فحسب، وإنما كان الغرض إلى جانب ذلك تأمين التخوم العربية ضد الروم، الذين تأثروا بتحريض اليهود،

(١) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٤٢.

(٢) يدل على هذا... دفاع الإسلام عن عيسى عليه السلام وتنزيهه عما يجيبه إلى المونوفيزيتين، وما جرى بين نجاشي الحبشة ومسلمي الحجاز في الهجرة الأولى.

(٣) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٤٢.

(٤) الطبري ١/٣/١٠١٦٠.

بعد أن أجلاهم النبي ﷺ عن المدينة وعن تيماء وفدك إلى فلسطين، فأراد النبي ﷺ بهذا البعث أن يهدد مشارف الإمبراطورية، ليحسب الروم حسابا للمسلمين. كما كان هناك هدف آخر هو الاستطلاع بالوصول إلى مآب، كما يظهر في قول عبدالله بن رواحة إذ يقول:

فلا وأبى مآب لأتيناها وإن كانت بها عرب وروم<sup>(١)</sup>

وسار المسلمون إلى مؤتة، وبيناهم في الطريق دنا منهم الروم عند مشارف وهي قرية من قرى بلقاء، فأنحازوا إلى مؤتة، وكان الروم في أعداد غفيرة، فأراد المسلمون أن يكتبوا النبي ﷺ فيما يتهددهم، فنهاهم عبدالله بن رواحة وقال: إنها الشهادة أو الطعن<sup>(٢)</sup>.

والتقى المسلمون بالروم، فاستشهد زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله ابن رواحة. وداور خالد بن الوليد بالمسلمين حتى قدم إلى المدينة<sup>(٣)</sup>.

وبدا بعد ذلك أن النبي ﷺ سيعاود الكرة، فتضاعفت الرغبة في الثأر، وقوبل بعث موة من المسلمين باستياء بالغ، وجعل الصبيان يحثون التراب عليهم ويصيحون: يا فرار. فررتم من سبيل الله، فيقول النبي ﷺ: ليسوا بالفرار، لكنهم الكرار إن شاء الله<sup>(٤)</sup>.

وفي العام التالي لبعث موة سار ﷺ بنفسه على رأس المسلمين إلى الحدود العربية الرومية، حيث قام هناك بمناورات حربية لم تحدث فيها اشتباكات، إذ اكتفى فيها بإظهار قسوة المسلمين في هذه الجهات<sup>(٥)</sup> وتراجع الروم دون قتال، وأصاب المسلمون بعض الواحات التي صالحوا عليها، كصلح النبي ﷺ مع أهل جرباء وأذرح، ومع صاحب أيلة. وأرسل خالد بن الوليد فصالح أكيدر صاحب دومة الجندل على الجزية<sup>(٦)</sup> فلا عجب - وقد أثارته هاتان الغزوتان الثارات بين المسلمين والروم - أن يجهز النبي ﷺ جيش أسامة

(١) معجم البلدان ج ٤ ص ٥٧١.

(٢) نفس المرجع والصحيفة.

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٢١١، ٢١٥.

(٤) ياقوت ج ٤ ص ٦٧٧.

(٥) ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٨ - ٣٣٨.

(٦) الطبري ١/٤/١٧٠٢.

ابن زيد بن حارثة، وأن يكون تجهيز هذا الجيش بعض سياسته في تأمين تخوم شبه الجزيرة من الروم، وكان أسامة حدثا لما يبلغ العشرين، وإنما ولاه رسول الله ليجعل له من فخار النصر ما يجزى به استشهاده أبيه بمؤتة. ولقد أمره النبي ﷺ أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه في عماية الصبح، وأن يمعن فيهم قتلا، وأن يحرقهم بالنار، وأن يتم ذلك دراكا، حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه، فإذا تم له النصر فليسر بالعودة غائما مظفرا. غير أن النبي ﷺ يلحق بربه قبل أن يجاوز جيش أسامة الخندق<sup>(١)</sup>.

وهكذا يمضى النبي ﷺ مخلفا للمسلمين خطة واضحة المعالم. ورغم ظروف ارتداد المسلمين، وحديث الناس إلى أبي بكر بالألا يفرق عنه جماعة المسلمين، الذين يشملهم الجيش في مثل هذه الظروف فإنه يعتزم إنفاذ جيش أسامة ولو تخطفته السباع، ولو لم يبق في القرى غيره<sup>(٢)</sup>. ويمضى أسامة فيغزو قبائل قضاة، ويسير على أبل، ويعود غائما في أربعين يوما، سوى مقامه ومنقلبه<sup>(٣)</sup>.

وهكذا يبدو أن الرسول ﷺ هو الذي رسم بنفسه خطة التمهيد للدعوة في بلاد الشام، وأنه قد أدرك بشاقب نظره أن أشد الخطر يكمن في الشام ويتهدد الدعوة، حيث الروم وعمالهم، فكان إدراكه عين الحقيقة، فلم يكن إرسال مولى الرسول ﷺ إلا ليدلهم، وما كان سيره إليهم بنفسه وإرساله أسامة إلا لفتا إلى هذا الخطر، وإظهارا لقوة المسلمين في هذه الأنحاء، ليقتضى على هيئة الروم في نفوس صنائعهم، وليكسر خطوط المقاومة الأولى في طريق الدعوة، وليشير في نفوس المسلمين نوازع القوة الكامنة. وبرغم أن أسامة لم يلق جيش الروم، إذ اكتفى بأن دهم القبائل وغنم منها فإن هذه الغزوة كانت بعيدة الأثر في حياة المسلمين، وفي حياة العرب الذين فكروا في الثورة بهم، وفي حياة الروم الذين تمتد بلادهم على حدودهم، حتى ليبعث هرقل بجيش قوى يعسكر بالبلقاء. وبرغم هذا كله لم يدر بخاطر أحد من أمراء الجيش الظافر أن يدفع أسامة لاقتضاء أثر عدوه، ذلك أن السياسة التي جرى عليها رسول الله ﷺ، والتي كانت ماثلة في نفوس المسلمين جميعا

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٤٥٢-٤٥٣.

(٢) الطبري ١/٤/١٨٤٨.

(٣) الطبري ١/٤/١٨٥١.

كانت تقف عند تأمين التخوم العربية، حتى لا يحدث الروم أنفسهم بغزو العرب انتقاماً لليهود الذين كانوا يأتقون بالمسلمين. فكان طبيعياً إذن أن يكرّ أسامة راجعاً إلى المدينة، دون أن يدور غزو الروم بخاطره. ولكن الانتصار الذي حققه أسامة كان له أثر بعيد في اعتزاز المسلمين بأنفسهم، وإكبارهم للذين حققوه. حتى ليصبح لانتصار أسامة هذا من الخطر ما لا يتفق مع قيمته الحقة، بل عد فيما بعد فاتحة للحملة التي وجهت لغزو الشام<sup>(١)</sup>.

أما فيما قبل فتح الشام فلم يكن له هذا الخطر ذاته، إذ اتبع أبو بكر سياسة النبي ﷺ، فهو متبع لا يدع أمراً رأى رسول الله ﷺ يصنعه إلا صنعه؛ ولذا كانت وصيته لأسامة أن يصنع ما أمره به نبي الله ﷺ، ولا يقصرن في شيء مما أمره.

وقد مر بنا أن أبا بكر كان يرى التفكير في حرب الشام بعد انتهاء فتنة الردة أهون من حرب الفرس، فمنذ بدأت طلائع النصر تسير أعلام المسلمين في حرب الردة كان التفكير في حرب الروم يتردد على خاطر أبي بكر، لكنه كان يخشى إيرام هذا الأمر قبل الفراغ من المرتدين، خشية انتقاص العرب عليه. فلما هون المثني أمر العراق، وانطلق خالد بن الوليد يكتسح أمامه الفرس وأهل البادية، ويضع يده على الخيرة ويتخذها عاصمة للمسلمين، ازداد تفكير أبي بكر في أمر الشام، وبخاصة بعد أن سلمت دومة الجندل وفتحت أبوابها للمسلمين. وكما كان بدء فتح العراق نتيجة للجهود التي بذلها بعض قادة المسلمين في حروب الردة كالمثني كان نفس الأمر في فتح الشام، فإن خالد بن سعيد بن العاص — الذي كان رداً بتيما على تخوم الشام — دعا إليه القبائل بأمر أبي بكر، فاجتمعت إليه جموع كثيرة جعلت عسكره عظيماً<sup>(٢)</sup>، وترامت إلى هرقل أنباء هذه الجموع، فاتخذ للأمر عدته. وترامت إلى خالد بن سعيد أنباء استعدادات هرقل، فبعث بها إلى الخليفة مشفوعة برأيه أن يأذن له في منازلة الروم ومن انضم إليهم من قبائل العرب، مخافة أن يأخذوه ومن معه على غرة.

وعقد أبو بكر مؤتمراً دعا إليه جلة أصحابه وأهل الرأي للتداول في هذا الأمر، وطال النظر في الأمر والتشاور، حتى استقر الرأي على الغزو والتجهز له، وأن يستعين الخليفة بأهل اليمن وأهل شبه الجزيرة جميعاً. وكتب الخليفة إلى أهل اليمن وإلى عماله في

(١) فكاك دائرة المعارف الإسلامية، فصل أسامة.

(٢) الطبري ١/٤/٢٠٨١.

أنحاء شبه الجزيرة، فلقيت دعوته آذانا صاغية، وخفوا يطلبون المدينة. وبينما أبو بكر يعد جيوشه تسلم كتابا آخر من خالد بن سعيد باجتماع الروم ومن نفر إليهم من بهراء وكتب وتنوخ ولخم وجزام وغسان، فكان رد الخليفة: أن أقدم ولا تحجم واستنصر الله.

فأسرع خالد بكل قوته وتسخطى الحدود لمنازلة القوم. ولم يلبث الروم وأنصارهم حين رأوه دنا منهم أن تفرقوا وتركوا منازلهم، فدخل معسكرهم وغنم ما فيه، وكتب إلى الخليفة بما صنع. فأجابته بأن يتقدم ويألا يقتحم، حتى لا يؤتى من خلفه. وتقدم خالد حتى بلغ القسطل في طريق البحر الميت. وهزم جيشا من الروم على الشاطئ الشرقي لذلك البحر، ثم تابع مسيره. وثار حمية الروم، كما ثارت حمية أهل الشام، فتجمعوا في أعداد عظيمة<sup>(١)</sup>. وفي هذا الوقت كان أبو بكر يبعث إلى عماله يخبرهم بين العمالة والجهاد، فأثروا الجهاد كعمرو بن العاص والوليد بن عقبة، وندبوا الناس معهم. وكان عكرمة بن أبي جهل قد قدم قافلا من كندة وحضرموت، فما إن بلغ المدينة حتى أمره أبو بكر أن يسير مددا لخالد بن سعيد، وكذلك سار الوليد بن عقبة فأدرك خالدا، وتقدم معه لمقابلة الروم<sup>(٢)</sup>.

وكان على جيش الروم القائد الأكبر باهان، الذي خدع المسلمين وتراجع أمامهم حتى مرج الصفر، ثم استدار فأحاط بهم وقتل سعيد بن خالد، واضطر خالد إلى الفرار، تاركا عكرمة يقود الجيش متقهقرا به إلى حدود الشام، حيث تحصن وأقام ينتظر المدد. ورأى أبو بكر أن يزيل هذه الهزيمة، وأن يرد المسلمين إلى الإيمان بالنصر، ويمدهم بما ينزل في قلوب الروم الخوف والهلع. واهتاج أبو بكر لفتح الشام وعناه أمره<sup>(٣)</sup>، فوجه بشرحبيل بن حسنة، الذي كان قافلا من العراق بأبناء النصر، وأمره بالشام فجمع قوة من جيش ابن سعيد وابن عقبة، وسار بها إلى عكرمة<sup>(٤)</sup>. ودعا أبو بكر يزيد بن أبي سفيان، وأمره على جند، وأردفه بأخيه معاوية، فسارا وفصلا ببعض جيش ابن سعيد<sup>(٥)</sup>. وندب الخليفة جيشا عظيما عليه أبو عبيدة بن الجراح، وأمره على حمص، وسمى الخليفة لكل قائد مكانا،

(١) ميكل، الصديق، ص ٢٦٢.

(٢) الطبرى ١/٤/٢٠٨٤.

(٣) الطبرى ١/٤/٢٠٨٢.

(٤) الطبرى ١/٤/٢٠٨٥.

(٥) الطبرى ١/٤/٢٠٨٥.

فليزيد بن أبي سفيان دمشق، ولشرحيل الأردن، وعمرو بن العاص فلسطين، وانطلقت الجيوش في طريقها إلى الشام. وكان أبو بكر باهتاجه للشام على هذا النحو يعزز انتصارات المسلمين بالعراق، فلو وقف أمر المسلمين عند هزيمة خالد لذهب نصرهم في العراق بددا، ولاقتحم عليهم الروم بلادهم. وظل المسلمون في مسيرهم حتى نزلوا الشام. وكان عمرو بن العاص معسكرا في العربية، وتخطى أبو عبيدة البلقاء إلى الحلبية، بعد أن خضع له عرب مآب. ونزل شرحيل الأردن، بينما نزل يزيد البلقاء. وقد اختلفت الروايات، ألقى المسلمون حربا في جنوبي فلسطين، أم تقدموا فيها ولم يواجههم أحد؟ وتلتقى جيوش المسلمين بجيوش عكرمة، ليعسكر أبو عبيدة على طريق دمشق، ويعسكر شرحيل في مرتفع بأعلى الغور، فوق طبرية ونهر الأردن، ويظل يزيد بالبقاء مهددا بصرى، ويبقى عمرو بالعربة<sup>(٢)</sup>. وعندئذ أدرك الروم الذين لم يعثوا بالمسلمين بعدما انهزموا وفر خالد أن الأمر أجل خطرا من أن يستهينوا به. فسير هرقل قوات عظيمة وقفت إزاء جيوش المسلمين، حتى يشغل كلا منها عن غيرها فيسهل التغلب عليهم. فعسكر جيش بقيادة تذارق أخى هرقل بإزاء عمرو. ووقف جيش يامارة الفيقر بن نسطوس بإزاء أبي عبيدة. أما شرحيل فاستقبل الداراقص على قوة من الروم، واستقبل جرحه جيش يزيد بن أبي سفيان<sup>(٣)</sup>.

هاب المسلمون جيوش الروم حين رأوها يخطئها العد، ففزعوا بالكتب والرسل إلى عمرو بن العاص يلتمسون عنده الرأي، ورأى عمرو أنهم لا يستطيعون لقاء الروم متفرقين، فكاتبهم يقول: (إن الرأي الاجتماع، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة، فأما إن تفرقنا لم تقم كل فرقة لمن استقبلها لكثرة عدونا). وجاءهم كتاب أبي بكر بمش رأى عمرو، وفيه: (اجتمعوا عسكر واحدا، والقوا زحف المشركين بزحفكم، فأنتم أعوان الله، والله ناصر من نصره...<sup>(٤)</sup>). واتعد المسلمون اليرموك على طريق دمشق، واجتمعت قواتهم كلها على شاطئه الأيسر. فلما رأى الروم ذلك جمعوا قواتهم على الشاطئ الأيمن للنهر، وتولى تذارق (تيودوريك) قيادتها.

(١) الطبرى ١/٤/١/٢٠٩٠.

(٢) هيكل، الصديق، ص ١٠٦٧.

(٣) نفس المرجع ص ٢٦٨.

(٤) الطبرى ١/٤/١/٢٠٩٠، و١/٤/١/٢٠٨٧.

ونهر اليرموك ينحدر سريعا بين آكام مختلفة الارتفاع إلى غور الأردن وإلى البحر الميت، وعلى مرحلة من ملتقى اليرموك بنهر الأردن تقع واقوسة في منبطح فسيح من الأرض، تحيط به من ثلاث نواح جبال بالغة الارتفاع. وقد اختار الروم هذا المنبطح معسكرا لهم، فلما استقروا به تخطى المسلمون النهر إلى ضفته اليمنى، واختاروا منبطحا آخر على الطريق المفتوح لجيش الروم. فلم يبق للروم طريق إلا عليهم. وأقام المسلمون برغم هذا لا يقدرّون على شيء، ولا يقدر الروم منهم على شيء شهرين كاملين. ورأى المسلمون ألا بد لهم من مدد يعينهم، فكتبوا إلى أبي بكر يستمدونه حتى لا يسأم الجند ويضعف إيمانهم بالنصر. وجمع أبو بكر أولى الرأى من صحابة الرسول ﷺ متعجبا أن يقف المسلمون هذا الموقف من الروم على كثرتهم، وتكشفت الحقيقة: أن العلة في القيادة، فالموقف يحتاج إلى قائد جسور وأبو عبيدة رقيق القلب، وابن العاص على دهائه غير مقدم، وعكرمة مناور مقدم يتقصه دقة التقدير. ثم إن كثرة الأمراء تجعلهم لا يقرون لواحد منهم بالتفوق، فإذا بأبي بكر يصيب كبد الحقيقة إذ يقول: «والله لأنسين الروم وساسوس الشيطان بخالد بن الوليد»<sup>(١)</sup>.

وكتب أبو بكر إلى خالد إثر عودته من الحج: «سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا»<sup>(٢)</sup>. وأخذ خالد يتدبر أمره، فتقاسم الجند مع المثنى كأمر أبي بكر، ثم اجتاز طريقا موحشا بطريقة فذة وفي أيام قليلة، وتمكن من إصابة بعض الواحات والقبائل في طريقه، كما استطاع بمعونة دليله رافع الطائي أن يختصر الطريق، وأن يقضى على مشكلة الإمدادات وخاصة توفير الماء فيما يشبه المعجزة<sup>(٣)</sup>، ويدخل عمله في إطار الأسطورة. وقد تجنب خالد أن يلتقى بالروم حتى يبلغ جيوش المسلمين. وأغار في طريقه على سوى وتدمر، وصالح أهل قصم وانحدر إلى أذرعاء فأغار على غسان بمرج راهط، ثم سار حتى نزل على قناة بصرى، وعليها أبو عبيدة وشرحيل ويزيد فتقدمهم خالد واقتحموا بصرى وفتحها الله عليهم، ثم ساروا جميعا إلى فلسطين مددا لعمرو بن العاص، فعسكر خالد بجنوده إلى جوار زملائه، واكتمل جمع المسلمين على اليرموك.

(١) الطبرى ١/٤/١/٢١٠٨.

(٢) الطبرى ١/٤/١/٢١١٠.

(٣) الطبرى ١/٤/١/٢١٠٨.

وصادف قدوم خالد قدوم باهان، الذى رأى هرقل أن يعزز به جنده. وكان الموقف بالغاً غاية الدقة، فعدد المسلمين قليل جداً، بالقياس إلى عدد الروم. وظل الموقف جامداً ثلاثة أسابيع يتدبر المسلمون أمرهم، وترامى إلى المسلمين أن الروم سينازلونهم فى غدهم، وتحدث الأمراء فى شأنهم، ولما آن لخالد أن يتحدث قال: «إن هذا اليوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر والبغي. أخلصوا لله جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، فهذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة وأنتم على انتشار»<sup>(١)</sup> فلما سأله الرأى، أشار بتعاونهم الإمارة، وطلب أن يتأمر فى اليوم الأول، ولم يترددوا.

عباً خالد الجيش كراديس كل منها ألف رجل، وجعل على القلب أبا عبيدة، وعلى المينة عمرو بن العاص وشرحبيل، وعلى الميرة يزيد، وجعل على كل كردوس فارساً من شجعان المسلمين كالقعقاع وعكرمة ومن إليهما. وعهد إلى أبى سفيان بتحريض المسلمين وتذكيرهم، فسرت إلى قلوب المسلمين قوة لم يكن لهم بمثلها عهد مذ نزلوا الشام. وتقدم القادة صفوفهم يرتجزون ويخطبون ويتمثلون، وكلهم يتنظر الأمر بالهجوم بصبر نافذ، وعزم ثابت على النصر أو الموت.

فلما صدرت الأوامر من باهان بالزحف كان جرجه بجيشه فى الطليعة، وكان قد تعلم العربية وسمع عن خالد ومال قلبه إليه، فتلقاه خالد وأفسح له ولعسكره طريقاً، وظن الروم أن جرجه فى حاجة إلى المدد، فانقضوا على المسلمين فزاحوهم. وكان عكرمة على كردوسه أمام فسطاط خالد، ورأى تسليم جرجه وارتاح له، فلما رأى صفوف المسلمين تتزاح أمام الروم نادى: من يسايعنى على الموت؟ فبايعه أربعمائة من وجوه المسلمين، واندفع بهم يلحق الروم فى هجمة رجل واحد، فزلزلوهم كما زلزلهم انضمام جرجه إلى المسلمين، وأيقن المسلمون بالنصر أو الفناء عندما رد الروم هجومهم بأعنف منه. واندفع خالد والمسلمون وراءه يهوون على عدوهم بسيوفهم فيخطفون أرواحهم خطفاً، وازداد حماس المسلمين حتى شارك النساء الرجال، واستمات الروم فى دفع المسلمين، وتأرجحت المعركة حامية الوطيس، فلما كانت الشمس فى الغيب بدأت قوات الروم تنهت، وكان نهر اليرموك يدور فى الشمال على شكل نصف دائرة، بحيث

(١) ياقوت، ج ٤ ص ١٠١٥.

يحتضن جنوبي القوس سهلا له باب واحد من الجنوب، فدار خالد خلف جيش الروم وحصرهم فتردوا في هاوية الواقوسة، وشدد المسلمون الضغط عليهم فتلاحقوا فيها<sup>(١)</sup>.

قضت معركة اليرموك على كل أمل للروم في استبقاء الشام، فلم يكدهرقل يسمع بهزيمة جيشه حتى جلا عن معسكره بحمص، وجعلها بينه وبين المسلمين، وقال قالته المشهورة: (سلام عليك يا سورية سلاما لا لقاء بعده ونعم البلد للعدو)<sup>(٢)</sup>.

ويذهب غير قليل من المؤرخين إلى أن معركة اليرموك كانت بعد أجنادين ودمشق، وأن اليرموك كانت آخر الوقائع. يذهب إلى ذلك الواقدي والبلاذري والأزدى، مخالفين الطبرى الذى اخترنا روايته. فالواقوسة التى حدثت المعركة عندها قريبة من بادية الشام ومن تخوم العرب، وهى أدنى الأرض إلى جيوش المسلمين حين التقائها. ويؤيد رواية الطبرى ما يرويه ياقوت فى هذه الواقعة من أنها حدثت لعهد أبى بكر، وأن البريد جاء بموته وخلافة عمر، ويتأمر أبى عبيدة على الشام كله، وبعزل خالد، وأخفى الخبر عن المسلمين حتى تم نصرهم. ثم دخل خالد على أبى عبيدة فسلم عليه بالإمارة وأفضى بالخبر<sup>(٣)</sup> ونحن نميل إلى هذه الرواية ونرفض رواية البلاذري ومن سايره. وليس لنا إلا أن نحتكم فى ذلك إلى الشعر الذى يؤيد وجهة النظر التى اخترنا بدوره، يقول القعقاع بن عمرو - وكان ضمن كتبية خالد - مصورا مسيرهم إلى اليرموك:

بدأنا نجمع الصفيرين فلم ندع لغسان أنفا فوق تلك المناخر  
صبيحة صاح الحارثان ومن به سوى نفر نجتدهم بالسواتر  
وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة فآلقت إلينا بالحشا والمعاذر  
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر<sup>(٤)</sup>

كتب أبو عبيدة إلى عمر بما تم من نصر المسلمين فى اليرموك، وأنه خلف بشير بن سعد بن أبى الحميرى عليها ليحمى ظهره، وخرج إلى مرج الصفر يتعقب فلول المنهزمين

(١) الجغرافيا التاريخية، محمد احمد حسونة، ص ٢٢/٣٣.

(٢) الطبرى ١/٥/٢٣٩٦.

(٣) ياقوت ج ٤ ص ١٠١٥.

(٤) نفس المرجع والصحيفة.

بفحل، وأنه أتاه الخبر بأن هرقل أمد دمشق بقوات من حمص، وأنه لا يدرى أيبدأ بدمشق أم بفحل من بلاد الأردن؟ فأجاب عمر بالبدء بدمشق فهي حصن الشام، على أن يشغلوا أهل فحل في نفس الوقت. فأرسل أبو عبيدة إلى فحل بقوة كبيرة عليها أبو الأعور السلمي، وسار هو وخالد بن الوليد في قوة الجيش الكبرى إلى دمشق، ورأى الروم الذين لجئوا إلى فحل مقدم المسلمين عليهم، وكان أثر اليرموك وما أورثه إياهم من فزع لا يزال آخذاً بنفوسهم، فأطلقوا ماء بحيرة طبرية ونهر الأردن في الأرض حولهم، فأوحلت وتعذر السير فيها، وغازت المسلمين ما صنع أعداؤهم فحاصروهم دون تقدم وظلوا على حصارهم. بينما كان أبو عبيدة يتقدم في كثرة الجيش إلى دمشق، حيث هجر الناس منازلهم ليحتموا في حصونها المنيعة برماتها ومنجنيقاتها وخنادقها التي طمتها مياه نهر بردي. وأمر أبو عبيدة جنده فسكنوا الغوطة معسكرين في كثائسها، حتى لا تحاصرهم قوة تأتي من حمص، وبعث بعلقمة بن حكيم، وبمسروق العبسي فعسكرا بين دمشق وفلسطين، ليمنعا أمداد الروم من الجنوب. وعين لكل من قواده بابا من أبواب دمشق الحصينة فنزل هو بالجابية، ونزل عمرو بن العاص بباب توماء، ونزل شرحبيل بباب الفراديس، ونزل يزيد بالباب الصغير المعروف بباب كيسان، أما خالد: فنزل بباب دمشق الشرقي. ونصب المسلمون المنجنيق والدبابات حول أسوارها، لكن حصونها كانت أمنع من أن تفضها عدة العرب، فردت المدينة كل هجمات المسلمين بسهامهم ونبلهم. وكان نسطاس حاكم المدينة، وباهان قائدها ينتظران أمداد هرقل، فطالت المقاومة، وأرسل هرقل ما وعد به، ولكن قوات المسلمين تصدت لأمداده. وعلى الرغم من هذا لم تسقط المدينة، وتمسكت بالمقاومة حتى انصرم الشتاء والعرب لا يرمون. عند ذلك وهنت المقاومة وبدأوا يفكرون في الصلح. ودخل المسلمون المدينة بعد أن تسورها خالد من الشرق وفتح أبوابها، بينما دخلها أبو عبيدة من الجابية صلحا، وكذلك فعل يزيد من باب توماء.

وكان طبيعياً أن يتجه أبو عبيدة بادئ ذي بدء إلى التفكير فيمن خلف وراءه من جنود المسلمين عند فحل بالأردن، ولكنه شغل قليلاً بتسريح جند خالد إلى العراق كما أوصى أبو بكر، فسارت كتيبة العراق وعليها هاشم بن عتبة، وعلى مقدمتها القعقاع، لتدرك المسلمين في القادسية كما مر، وكاد يشغل عن فحل تماماً، إذ أوعز إليه البعض بفتح حمص، مدفوعين بحماسة الظفر، ومنتهزين فرار هرقل منها إلى أنطاكية، لكنه

خالف مشورتهم حتى لا يقطع أحد ساقته، فترك يزيد على دمشق، وتقدم ومعه خالد وقوات الجيش مجتمعة وبلغ بهم فحل وقد جفت الأرض. وكان أبو بكر قد جعل إمارة الأردن لشرحبيل، فله القيادة لأن القتال يقع في إمارته، فبعث أبا الأعور السلمى إلى طبرية فحاصرها، وجعل خالدًا على مقدمة الجيش، وأبا عبيدة وعمرا على المجنبتين، وضرار بن الأزور على الفرسان. وأقاموا قبالة الروم يتظرون وطال وقوفهم، فخيّل إلى سقلار قائد فحل أنه يستطيع أخذ المسلمين على غرة، فقد أمن المسلمون وأقاموا على غير عدة لطول مقامهم، وأنهم لذلك ستضطرب صفوفهم لأول وهلة. وخاب ظنه إذ إن المسلمين لم يأمنوا، وكان شرحبيل يبيت ويصبح على تعبثة، واستبسل الروم في قتال مرير، وطالت المعركة الليل كله، والنهار الذى يليه إلى الليل، حتى خارت قوى الروم ووهنوا، فانهزموا وقتل قائدهم وأسلمتهم هزيمتهم إلى الوحل، فلحق بهم المسلمون فركبوهم وخزا بالرماح، وقتلوهم شر قتلة، فأصيب الثمانون ألفًا لم يفلت منهم إلا الشريد<sup>(١)</sup>.

ثم نهّد شرحبيل ومعه عمرو فحاصر أهل بيسان، ولكنهم لم يستمروا فى المقاومة واضطروا إلى التسليم والصلح، فقد هوت روحهم المعنوية إلى منحدر من الضعف، بسبب ما أصابهم فى اليرموك وفى دمشق وفى فحل. ثم إن أهل الشام لم تبلغ عداوة المسلمين منهم مبلغًا يعاون الروم على المقاومة، فقد حكمهم الروم ببأس وقوة لا يثيران حماسة لحكمهم أو حرصًا على بقائه.

وبلغ أهل طبرية ما أصاب بيسان وأهلها، فطلبوا إلى أبى الأعور أن يصالحوا شرحبيل. واحتذى أهل أذرعات وعمان وجرش ومآب وبصرى مثالهم، وكذلك أذعنت بلاد الأردن إلى حوران وإلى البادية ورضيت سلطان المسلمين، الذين أقاموا الجند فى المدن وتركوا لأهلها إدارة شئونها.

وسار أبو عبيدة ليفتح حمص، فلما بلغ دمشق ضم إليه ذا الكلاع وقوته التى كان قد تركها رداءً لدمشق من الشمال. وما إن بلغ إلى الشمال الشرقى من دمشق حتى لقى جيشًا من الروم بعث به هرقل بإمرة توخر، فوقف قبائله. وإنه لكذلك إذ أقبل شنس

(١) ياقوت ج ٣ ص ٨٥٢.

الرومي مددا لتوذر، فعسكر على حدة. وتداول أبو عبيدة مع خالد، واستقر رأيهما على أن يلقي خالد توذر، وأن يلقي أبو عبيدة شنس، وكان همهما أن يصدوا المسلمين عن حمص. وبات كل من القائدين يرتب أمر الحرب وينظم خطته، ولما تنفس الصبح لم يجد خالد أثرا لتوذر، فقد انسحب في جنوده من أول الليل يريد دمشق، ثقة منه بأن حاميتها لن تطيق مقاومته. وتدبر خالد الأمر، فلا قيمة للانتصار على شنس إذا ما افتض توذر دمشق. وأسرع خالد في كتيبة من الفرسان يطارد توذر. وكان توذر قد وصل إلى دمشق، وبلغ يزيد خبره فخرج يلقاه، وأنشب القتال بعد أن أغلق أبواب المدينة، وبينما توذر يهاجمه أقبل خالد فأخذ الروم من خلفهم، وكبر وكبر الذين معه، فأيقن المسلمون المدافعون بوصول المدد، فأخذهم يزيد من أمامهم وخالد من خلفهم وأمعنوا فيهم قتلا، ولم يفلت منهم إلا الشريد. وغنم المسلمون خيلهم وأداة حربهم ومتاعهم. وعاد خالد إلى مرج الروم فوجد أبا عبيدة قد انتصر على شنس وقتله، ومزق جيشه كل ممزق<sup>(١)</sup>. وانطلق يلاحق فلولة إلى حمص وحاصر بعلبك، فلما ترامت هذه الأنباء إلى هرقل ارتحل على أثرها، وأرسل إلى أهل حمص يعدهم بالمدد وأن العرب لن يطيقوا برد حمص، ولم تطل مقاومة بعلبك أمام أبي عبيدة فصالح أهلها، وتركهم إلى حمص فحاصرها وعلى مقدمته خالد بن الوليد. وامتنع أهل المدينة بحصونها لا يخرجون لقتال المسلمين إلا في اليوم الشديد برده، وطال بالمسلمين الحصار، وطال بأهل حمص انتظار ما وعدهم به هرقل، وانصرم الشتاء ولم يرحل المسلمون، فترجعوا إلى الصلح أخيرا ودخلها المسلمون.

خلف أبو عبيدة على حمص عبادة بن الصامت ومضى نحو حماة، فتلقيه أهلها مدعين، فصالحهم على صلح حمص. وسار إلى اللاذقية حيث حاصرها واضطر أهلها إلى الصلح، بعد أن خدعهم عن مدينتهم بحفر حفائر كالأسراب، ثم أظهر المسلمون رحيلهم فاطمأن أهلها وخرجوا إلى معاشهم، وعاد المسلمون مع الليل حيث دخلوا المدينة من حفائرهم، ومنعوا الذين خارجها من الدخول، فسلم من أقام في المدينة<sup>(٢)</sup> وتوجه خالد إلى قنسرين حيث هزم ميناكس هزيمة منكرة، وخرب المدينة بعد استسلامها عقوبة لها، وأودى بحاضرها وبمن فيها من عرب تنوخ وسليج.

(١) الطبرى ١/٥/٢٥٠٥.

(٢) هيكل، الفاروق، ص ٢٣٠.

وعلى الرغم من أن أبا عبيدة أجابهم إلى الأمان من بعد، فعادوا بعد أن فروا إلى أنطاكية، إلا أنهم غدروا بالعرب عندما ساروا إلى حلب، فوجه إليهم أبو عبيدة قوة حصرتهم وغنمت منهم مئونة للجيش، وتركت فيهم حامية تكفل إذعانهم وتحمي المؤخرة<sup>(١)</sup>. وسار أبو عبيدة إلى حلب فحاصرها، ولم يلبث أهلها أن خارت عزيمتهم برغم مناعة حصونهم فطلبوا الصلح<sup>(٢)</sup>.

وكان هرقل قد اعتصم بأنطاكية قبل ارتحاله إلى الرها، وهى عاصمة الإمبراطورية الرومانية فى الشرق، وكان فتحها لدى عمر يعادل فتح المدائن، ويتلطف على أخبارها تلهفه على أخبار القادسية. ولم يكن أبو عبيدة يجهل منعتها وقوة حصونها، كما لم يغب عنه أنها مقر الذين نجوا بعد هزائمهم فى مواقع الشام كلها، فاجتمعوا بها وعزموا على الدفاع عنها، ولكن دفاعهم انهار أمام المسلمين، فخرج أهلها وتركوا حصونهم حيث تلقاهم أبو عبيدة فى معركة حامية، وحاصر المدينة فسلمت ونزلت على حكمه فرحل عنها. ولكن أهلها عادوا فنقضوا عهدهم، فبعث إليهم بعياض بن غنم فقضى على انتقاصهم، وأقام فيها حامية ثابتة كأمر الخليفة<sup>(٣)</sup>. ولم يبق لكى يتصل الفتح فى الشام بالفرات إلا تطهير شمال الشام، لذلك سار أبو عبيدة إلى حلب حيث بدد جيش الروم، ثم فتح قورس ومنبج، وبعث بخالد ففتح مرعش. وسار يزيد بن أبى سفيان من دمشق ففتح بيروت والثغور المجاورة<sup>(٤)</sup> وبس هرقل فارتحل من الرها إلى القسطنطينية. ورأى جبلة بن الأيهم ما حل به فكتب إلى أبى عبيدة بإسلامه وإسلام بنى غسان، حتى حدث أن وطئ إزاره رجل من بنى فزارة فتنصر والتحق بهرقل<sup>(٥)</sup>.

وبينما كان أبو عبيدة يسير مظفرا فى شمال الشام كان عمرو بن العاص وشرجيل يواجهان قوات الروم، التى اجتمعت بفلسطين لأرطوبون أكبر قواد الروم وأكثرهم دهاء، وكان قد وضع بالرملة جندا عظيما وبإبلياء جندا مثله، وترك بغزة وسبسطية ونابلس واللد ويافا حاميات. وأقام ينتظر مقدم العرب واثقا من النصر.

(١) الطبرى ٢٥٠٧/٥/١.

(٢) الطبرى ٢٥٠٨/٥/١.

(٣) الطبرى ٢٥٠٨/٥/١.

(٤) هيكل، الفاروق ص ٢٣٦٦.

(٥) الأغانى الساسى ج ١٤ ص ٤٤.

وأدرك عمرو دقة الموقف، وخشى توزع جنوده بين هذه الأماكن، فخاطب الخليفة في ذلك. فأشار عمر بأن يتوجه معاوية إلى قيسارية ليفتحها فلا يجيء إلى أربطون أمداد عن طريقها. وسار معاوية إليها فحصرها، وزاحف أهلها وردهم إلى حصونهم كلما خرجوا له. وطال بهم الأمر حتى استماتوا في قتاله ذات يوم فقضى عليهم، حتى ليقال إنه قتل منهم ثمانين ألفا. ويسقوط قيسارية أمن المسلمون جانبها، وامتنع كل مدد يجيء إلى الروم عن طريقها<sup>(١)</sup>.

ولم يكتف عمرو بهذا، فقد رأى أربطون يتقدم بقواته إلى أجنادين، فوجه علقمة ابن حكيم ومسروقا العكي إلى إيلياء حتى يشغل الروم عنه. ووجه أبا أيوب المالكي إلى الرملة لنفس الغرض. وسار عمرو في جلة الجيش إلى أجنادين، فإذا الروم قد تحصنوا وخندقوا. واحتال عمرو فتنكر حتى دخل على أربطون كأنه رسول، وتأمل حصونه وعرف ما أراد. واحتال حتى خرج بعد أن كاد أمره يكتشف، ولم يبق أمام عمرو إلا أن ينشب القتال بعد أن عرف مأخذه ومآتيه. وبعد أن أعد له عدته التقى الجيشان بأجنادين، كما التقى جيش الروم والمسلمين بالواقصة، وكذلك كان القتال شديدا، وترجع النصر منا بينهما. وكان أهل فلسطين من اليهود والنصارى يقفون من حكامهم ومن غزاتهم موقف المتفرج، لا تحركهم حماسة للروم ولا غضب على المسلمين. وساعد هذا على أن يكون المسلمون أكثر ثباتا وصبرا، فلما أذنت الشمس بالمغيب رأى أربطون صفوفه تضطرب فانسحب في الناس متقهقرا إلى بيت المقدس، فأفصح علقمة ومسروق طريقا، فدخل المدينة بمن بقي من جنده معتمدا على مناعة حصونها. وعسكرا بقواتهما إلى جانب قوات أبا أيوب بأجنادين. بينما أقام عمرو وينظر في مهاجمته أربطون ببيت المقدس. ورأى عمرو أن يحيطوا به فيقطعوا خط الرجعة عليه من ناحية البحر، ففتحوا رفح وغزة وسبسطية ونابلس واللد وعمواس وبيت جبرين ويافا<sup>(٢)</sup>.

وكتب أربطون عمرا بأنه لن يفتح شيئا بعد أجنادين، فعليه أن يرجع ولا يغتر. فرد بأنه صاحب فتح هذه البلاد، وطلب إليه أن يتدبر أمره قبل أن يدهمه، ولكنه كان يشعر

(١) هيكل، الفاروق ص ٢٤٧.

(٢) الطبرى ١/٥/٢٤٠٥.

أنه بحاجة إلى مدد، فقد أنهكت وقعة أجنادين المسلمين، فكاتب الخليفة أنه يعاني حربا كثودا صدوما، وبلادا ادخرت له، وطلب رأيه. وظل محاصرا للمدينة والمقاومة تشتد، حتى ذاق المسلمون من قسوة المنجنيقات وشدة البرد الكثير. وكان جليا أن استماتة المدينة في الدفاع سببها الدين. فلما أيقنوا بانقطاع المدد عنهم، وبقسوة المنجنيقات على المسلمين خافوا على كنيستهم وقلبتهم ألا يصلحهم المسلمون على ما صالحوا عليه المدن الأخرى، ولهذا فقد اشترطوا أن يتولى عقد الصلح خليفة المسلمين بنفسه، وربما لتركوا لجنودهم فرصة ينسحبون فيها إلى مصر. وكتب لهم عمر كتابا أمنهم فيه على أنفسهم وبيعهم وصلبانهم<sup>(١)</sup>.

وانتهز عمر وجوده بالشام فنظم إدارته، وعدل قيادته وقسم إقليم الشام مقاطعات تعرف بالأجناد، ثم قفل راجعا إلى المدينة.

ولم يشأ الروم بعد كل هذا أن يتركوا المسلمين ينعمون بالاستقرار في بلاد الشام. وداعب الأمل هرقل في أن يستعيد الشام في محاولة نهائية، وتصادف أن القبائل العربية الضاربة في شمالي الشام وظلت على مسيحييتها خشيت خطر المسلمين، فراسلت هرقل تطلب عونه في مهاجمة المسلمين، ورأى هرقل في ذلك فرصته فراسل هذه القبائل لتستعد، بينما أبحرت جيوشه من الإسكندرية بقيادة ابنه قسطنطين. وألقت الحملة عرساها على شاطئ أنطاكية واستولت عليها. وهناك انضم إليها قبائل العرب المتمردة، ولم يلبث شمالي الشام أن ثار. فألقى أبو عبيدة نفسه محصورا في حمص، بينما أعداؤه يسرون إليه برا وبحرا، فراسل عمر فأمده بالقعقاع ونصحه بالتريث<sup>(٢)</sup>.

وكانت الخطة أن تحصر القبائل المتمردة عن دائرة جيش الروم فطوقها عبدالله بن عتيان وسرعان ما رجعت إلى مضاربها وآثرت السلامة<sup>(٣)</sup>.

واستطاع المسلمون — بعد انفرادهم بالروم — أن يحطموا مقاومتهم، وأن يهزمهم برغم استماتتهم في القتال، وأخيرا ألبأهم المسلمون إلى الانسحاب ومنذ هذا اليوم عرف

(١) الطبرى ٢٤٠٥/٥/١.

(٢) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٥٢.

(٣) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٢٤.

المسلمون قيمة الأساطيل البحرية . وقد أملت بالمسلمين فى هذه الفترة مجاعة عنيفة ووباء شديد . أصابتهم المجاعة فى مواطنهم فى شبه الجزيرة ، وأصابهم الوباء فى الميدان . ودامت المجاعة تسعة أشهر ، وهلك فيها الزرع والنسل والضرع والحراث ، وأصاب الناس منها الجهد والبلاء . أما الطاعون فقد امتد من الشام إلى العراق فأفنى الألوف من خيرة المسلمين رجالا ونساء وجندا ومدنيين ، حتى ارتاع له الناس أيما ارتياح . وعالج الخليفة المجاعة بصبر وحكمة ، مستعينا بما أفاءه الله من خيرات الشام والعراق . وأما الوباء فيذهب بعض المؤرخين المتأخرين أنه نشأ عن كثرة القتلى فى الميادين ، حتى تعذر دفن أكثرهم فآثار ذلك ما سبب الوباء . وعالجه عمرو بن العاص ، إذ أشار بإخلاء المنازل والإخلاء إلى الخلاء والاعتصام بالجبال .

واهتم عمر بأمر الوباء وما آكل إليه أمر الشام بعد زواله ، فقد فنى من المسلمين خمسة وعشرون ألفا . وانتقل من الشام إلى العراق ففتك بأهل البصرة . ولا يأمن عمر أن يكون ذلك سببا فى اضطراب النظام الاقتصادى ، بسبب موارد من فنى ، فقد يجر توزيعها ثارات بين المسلمين ، فعول على الخروج إلى الشام ونزل الجابية ، وزار مدن سورية جميعها يستفسر عن حال المسلمين ، ووزع الموارد ونظم ثغور الشام ومسالحه ، وبذلك استقر كل أمر فى نصابه ، وثبتت أقدام المسلمين بالشام وورثوا فيها الروم . ولكن المسلمين كانوا يدركون إدراكا عميقا أن وجودهم بالشام رهن بفتح مصر ، بعد أن رأوا فى مقاومة الروم لهم من قواعد مصر البحرية فى حملة قسطنطين ما أزعجهم وهدد سلطانهم فدفعهم هذا إلى التشاور مع الخليفة فى مؤتمره بالجابية فى فتح مصر على ضوء الأحداث والواقع .



#### ٤- فتوح مصر و أفريقية

كانت مسيرة عمرو بن العاص إلى مصر بإذن من عمر بن الخطاب، لكن عمر لم يأذن بهذا السير إلا بعد تردد طويل، استمر عامين أو أكثر، فالتواتر أن ابن العاص خاطب الخليفة في غزو مصر حين فتحت بيت المقدس أبوابها للمسلمين، وبعد أن صالح أمير المؤمنين أهلها في السنة السادسة عشرة من الهجرة، حينما انسحب قائد الروم الأرطيون بقواته من فلسطين إلى مصر<sup>(١)</sup>. ولعل عمرا أشار على الخليفة بتعقبه وهو منهزم، قبل أن تتاح له فرصة التحصن والدفاع والمقاومة في بلاد منيعة الحصون وفيرة الميرة، ولاسيما أن إطالة أمد التفاوض في حصار بيت المقدس، وطلب حضور الخليفة بنفسه لعقد الصلح لم يكن الهدف من ورائهما إلا كسب الوقت، حتى يتمكن أرطيون من الانسحاب بجنده إلى مصر.

ولعله أيضا ذكره بما صنعه الروم حينما رأوا التجمع في مصر ليشتنوا منها هجوما على المسلمين، مستغلين في ذلك إمكاناتها البحرية كما حدث في حملة قسطنطين، التي خرجت من شواطئ الإسكندرية واستولت على أنطاكية. وكادت بمساعدة القبائل أن تزعزع فتوحات المسلمين. وليس شك في أن إدراك هذه الصلة بين مصر والشام ينم عن فهم لطبيعة المنطقة الجغرافية، والضرورات الحربية التي تحتم على المسلمين الاستيلاء على مصر لضمان استقرار مكاسبهم في الشام. ولكن الخليفة تردد وطال تردده، فقد كانت الحرب سجالا بين المسلمين والفرس، وكان شمال الشام يعج بالثورة والانتقاص، بينما حدثت الكارثة التي هددت شبه الجزيرة بالفناء. ولم تكد المجاعة تنتهي حتى فشا طاعون بفلسطين وامتد حتى البصرة. وكان طبيعيا إذن أن ينسى الخليفة كل ما حدث به عمرو بن العاص عن مصر.

ولما عادت شبه الجزيرة إلى مألوف حياتها، وبرزت الشام من الوباء، وجاء الخليفة إليها يصلح شئونها لزم ابن العاص أمير المؤمنين، يدلي إليه بحجج جديدة حتى يزيل

(١) الطبرى ١/٥/٤٠٤.

تردده، فلو قنع المسلمون بموقفهم لحسبهم أعداؤهم تضعضوا تحت وطأة الوباء والجوع، ولهاجموهم في الشام عن طريق مصر، أما إذا نهّد لهم المسلمون في مصر ذاتها وقفوا موقف المدافع، وتعطلت سيامة الهجوم تماما. ولا بد أن ابن العاص قد أفاض في تزيين الفتح لأمير المؤمنين إفاضة العليم بمصر ومدنها وطرقها وحصونها، لما أتيح له من زيارتها، وما استخلصه من أسرى الروم الذين يعرفونها حق المعرفة. فمصر ولاية غنية بطبيعتها وثرواتها، تسيطر على منافذ العالم المعروف كله، وهي مركز تجارته، وأساطيلها التجارية تشق عباب البحرين من أقدم العصور إلى الجنوب من بلاد العرب، تحمل إليه التجارة، وتجيء منه بمختلف السلع، وتتصل عن طريق سيناء بطريق القوافل المنحدر إلى مكة واليمن. وهذا الاتصال أتاح احتكاكا مباشرا بين العرب وأهل مصر، وأدى إلى استقرار عدد غير قليل من العرب ببادي مصر، وإلى استقرار جالية مصرية على طريق القوافل، كانت نواة لمدينة يثرب، كما يذكر مؤرخو العصور القديمة.

وظلت هذه الصلات التجارية متصلة بين مصر وبلاد العرب حتى أضعفها استيلاء الروم على مصر زمننا، ثم عادت إلى مثل ما كانت عليه، ذلك أن العرب ظلوا يقومون برحلة الصيف إلى الشام، كان منهم من ينحدر إلى مصر عن طريق القوافل عند آيلة، وكان أكثرهم يسيرون إلى الشام، فإذا قضوا وطرا من التجارة توجهوا إلى مصر، وذلك ما كان يصنعه تجار مكة كعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وعثمان بن عفان<sup>(١)</sup>.

وكان العرب بحكم هذه الصلات يعرفون الكثير عن مصر. وقد تحدث القرآن الكريم عنها في مواضع كثيرة، فزود العرب المسلمين بها علما، بنهرها العظيم وأرضها المعطاء وزروعها الناضرة وخيراتها الوفيرة، في قصص إبراهيم وموسى وعيسى، فاثار في نفوسهم صورة مصر الطبيعية، وصورا من تاريخها منذ أقدم العهود إلى عهدهم.

ولم تكن معرفة المسلمين بمصر مقصورة على ما كان من أمرها في العصور الأولى، بل كانوا يعرفون من أمرها في زمانهم أكثر مما يعرفونه من تاريخها، ذلك أن العرب كانوا يتابعون ما يجرى بين فارس والروم بعناية بالغة، فقد اتصل القتال بين الدولتين بمصر زمننا غير قليل، ذلك أن الفرس دخلوها في سنة ٦١٦م وأقاموا بها تسع سنوات،

(١) حسن المحاضرة، ج ٢ ص ٤١.

حتى أجلاهم هرقل عنها وعن الشام. وخلال هذه السنوات كان المسلمون يمدون أبصارهم إلى تلك الأرجاء، مؤمنين بأن الروم سيغلبون الفرس لا محالة كما أوحى الله إلى نبيه ﷺ. فلما تمت هزيمة الفرس كان رسول الله ﷺ قد هاجر إلى المدينة، وكانت سراياه تسير منها إلى ما حولها، فلما استتب الأمر بعث رسله إلى كسرى وقيصر وملوك الحيرة وغان وأمراء الجنوب من شبه الجزيرة، وإلى حاكم مصر يدعوهم جميعا إلى الإسلام.

وقد يلتفت النظر أن المقوقس حاكم مصر كان أجمل الملوك والأمراء ردا على رسالة النبي ﷺ وأكثرهم مجاملة له، فبعث مع حاطب بن أبي بلتعة رسول النبي ﷺ إليه بكتاب يشير فيه إلى أنه يعتقد أن نبيا سيظهر، ولكنه ظن أنه سيظهر في الشام.

ويذكر أنه استقبل رسوله بما يجب له من إكرام، وأنه بعث معه بهدية جاريتين وبغلة بيضاء وحمار ومقدار من المال وبعض من خيرات مصر<sup>(١)</sup>.

وقد اصطفى محمد ﷺ مارية القبطية إحدى الجاريتين لنفسه، فولدت له إبراهيم، فرفعها النبي ﷺ إلى مقام زوجته، وكان يقول: «استوصوا بالقبط خيرا، فإن لهم ذمة ورحما».

وقد عرف المسلمون من أهل الشام ما يعرفونه عن مصر، وفضلا عن معرفة عمرو الشخصية بما بها، كانت صورة مصر واضحة في ذهنه عن هذه السبل، عندما بدأ يفتح الخليفة في فتحها ويزينه له ويغريه بشتى الطرق، ويضع أمثلة لخصبها ووفرة إنتاجها تحت عينيه، ويفيض فيما يظنه دافعا له على الإذن بفتحها. فهي مركز خطير الأهمية بالنسبة لدولة الروم، وهي مخزن إمداد للميرة والمؤن والغلال والجند، وفتحها قوة للمسلمين وعون لهم، إذ هي أكثر البلاد أموالا<sup>(٢)</sup>، وهو في نفس الوقت حرمان للروم من أهم الشرايين التي تبعث فيهم الحياة.

وظل عمرو يلح على أمير المؤمنين مغريا إياه بأن يأذن له، عارضا عليه ما آل إليه حال المصريين تحت حكم الروم من الظلم والعسف والاضطهاد وأثر المبادئ الإسلامية التي بلغت عدلتها وسماحتها فيهم في تيسير الفتح.

(١) صح الأعمى، ج ٦ ص ٤٦٧.

(٢) ابن عبد الحكم ص ٥١.

وقد أصاب عمرو في إشارته إلى هذه السياسة الظلمة التي اتبعتها الروم ولم يكن إلحاحه وليد حبه للمغامرة التي يظهر فيها مواهبه في مباراة خالد بن الوليد، كما يزعم بعض المؤرخين<sup>(١)</sup> فإن هدفا متناهما في السمو كهذا لا يمكن أن يعزى إلى سبب شخصي، إذ لا يعقل أن يقدم خليفة حذر كابن الخطاب على فتح مصر دون أن تكون هناك دوافع لها خطرها.

وكل ما هنالك أن عمرا قد أدرك مدى الخطر الذي يمكن أن يسببه بقاء مصر في حوزة الروم، بعدما رأى إبان فتح فلسطين وبيت المقدس، ولأنه أحس بما يدور في مصر ولمس بنفسه أخبارها، وهجرة الألو ف من أبنائها إلى الشام فرارا من الاضطهاد الديني والمذهبي. وعرف عن تعذيب اليعاقبة الشيء الكثير كما عرف ما يرزح تحته المصريون من أعباء الفتن والضرائب والمكوس الباهظة.

فقد استهدف المصريون منذ اعتناقهم المسيحية لعدوان الروم، فتوالت عليهم النقم من قياصرتهم قتلا وتعديبا وتشريدا، حتى جاء القيصر دقلديانوس فأغلق كنائسهم وأسرف في قتلهم، بغية استئصال شأفتهم أو ردهم إلى الوثنية، وترتب على هذا قيام الثورات في الإسكندرية، مما اضطر القيصر إلى إخمادها بنفسه، بعد أن حاصر المدينة ودمر أبنيتها، وراحت النظم الإدارية بعد هذا ترمى إلى التشدد في تقديس الإمبراطور وإكباره، بغية تحويله من رئيس ديني إلى ما يشبه الإله الذي يعبد وتقدم إليه القرابين.

وقد أثارت هذه السياسة سخط المصريين. فلقى الروم في سبيل تأليه إمبراطورهم مقاومة عنيفة وعنادا شموسا، حتى أصبح عصر دقلديانوس مما يؤرخ به في مصر، إذ اعتبر اعتلاؤه العرش مبدأ تاريخ الشهداء لكثرة القتل والمعذبين فيه<sup>(٢)</sup>.

وعندما اعتلى قسطنطين العرش اعتنق المسيحية، ولكن القبط خلصوا من اضطهاد الحكومة ليقعوا في اختلافات مذهبية حول كنه العلاقة التي يمكن أن تكون بين الله وعيسى. ولم يكذ ثيودوسيوس يقبض على أزمة الأمور حتى قرر تنصير الإمبراطورية في نهاية القرن الرابع، ولكن الخلافات المذهبية لم تتوقف، وإنما تبلورت في مذهبين متقابلين: هما اليعقوبية والملكانية.

(١) فيليب حنى، ص ٢١٥.

(٢) ملن/ تاريخ مصر تحت حكم الرومان ص ٨٧.

ويعتقد اليعاقبة من أهل البلاد، بأنه قد صار للمسيح طبيعة واحدة بعد تجسده، نتيجة امتزاج الطبيعة الإلهية بالطبيعة البشرية، وأن هذا الامتزاج كامتزاج الخمر بالماء، حتى يصيرا شيئا واحدا، بينما يرى الملكانيون من الروم الحاكمين أن الابن مولود من الأب قبل كل الدهور، غير مخلوق، وهو جوهره ونوره، وأن الابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحدا هو المسيح، وهذا الاتحاد كاتحاد النار في الصفيحة المحماة.

وبرغم أن المذهبين يتهيان إلى ما يشبه النهاية الواحدة المتفقة، فهما يختلفان في التفاصيل، وقد انعقد مؤتمر خلقدونيا في مطلع النصف الثاني من القرن الخامس فأقر المذهب الملكاني وأوصى بعزل بطريق الإسكندرية ومؤسس المذهب اليعقوبي، وبقتل كل من يقول بمذهبه، واستقبل هذا القرار بالثورة، وازداد عسف الحكام بالشعب فأباحوا المدن وأبطلوا الأعياد وأغلقوا الحمامات، وزجوا بزعماء الثورة في الهياكل وأحرقوها بهم، وقطعوا إعاة الغلال، واستمر الاضطهاد عنيفا، ووقعت المعارك الدموية وأحقرت الإسكندرية وقتل مائتا ألف في كنيستها بأمر البطريرق أبو لينارس، الذي فرضه عليهم يوستينانوس في مطلع القرن السادس، وجعل منه حاكما للإسكندرية تتول إليه جميع أملاك الكنيسة<sup>(١)</sup>.

وأثمرت هذه السياسة الدموية المتعسفة في مصر عداا دائما وبغضا للروم لا حد له. وأتيح للقبط في مطلع القرن السابع أن يعتقدوا من جحيم الروم لمدة يسيرة إبان غزو الفرس لمصر، ولكن هرقل أعادهم إلى ما كانوا فيه من التعذيب والاضطهاد، وازداد الحال سوءا في محاولته فرض مذهب ابتكره له سرجيوس، للتوفيق بين الملكانيين واليعاقبة، وليقضى به على الخلافات الناجمة عن التعرض لكنه المسيح وصفته وطبيعته.

ويقضى هذا المذهب بأن للمسيح إرادة واحدة وقضاء واحدا، وكان استقبال القبط لهذا المذهب سيئا للغاية، وحاربوه حربا أشد من حربهم للوثنية، وتجددت الفظائع واضطر المصريون إلى الفرار إلى الصحراء، وشاع الاتجاه إلى الرهبنة كما فعل بنيامين البطريرق، الذي أوعز بعد فراره إلى القبط بالآ يقاوموا العرب، فكان أن لم يجد عمرو في طريقه من الفرما إلى بابليون مقاومة عنيفة، وقد صاحب الاضطهاد الديني اضطهاد سياسي

(١) ملن/ تاريخ مصر تحت حكم الرومان ص ١٠٠ - ١٠١.

واجتماعى، لا يقلان فى آثارهما عنه، فإن مصر لم تكن فى اعتبار الروم غير مزرعة للغلال. وبينما كانوا يستنزفون خيراتها كان أبناؤها يعانون الكثير من الفقر والمرض والجهل، واشتعال الفتق والحرمات من حقوقهم ومن تولى المناصب الرفيعة، ومن فرض الضرائب الباهظة المتعددة على الأشخاص والأشياء، وعلى المارة والموتى وصناع السفن والعاهرات وزوجات الجنود، وتذاكر المرور وختمها، وأثاث المنازل وشراعات السفن وصواربها، فضلا عما كان مفروضا على الأهالى من وجوب إيواء الموظفين والجنود، وتقديم ما يحتاجونه من وسائل النقل والغذاء<sup>(١)</sup>.

ولا شك فى أن هذه العوامل كلها لاقت اهتماما من الخليفة، الذى استمع إلى عمرو وإغرائه بفتح مصر، واقتنع بوجاهة رأيه، وكفالة كل هذه العوامل لإنجاح فتح المسلمين لمصر فعمد له لواءها. والروايات التاريخية تختلف اختلافا بعيدا حول إذن الخليفة لعمرو بالفتح، بين أن يكون عمرو قد حذب الفتح إلى الخليفة، أو أن يكون الخليفة هو الذى أمر به عمرا، وبين أن يكون عمرو قد استأذن فى الفتح قبل تقدمه أو بعده<sup>(٢)</sup>.

إلا أن هذه الروايات المختلفة جميعا تتفق على تلك الإحالة التى تكاد أن تكون استخارة، تمثلت فى الكتاب الذى أرسله الخليفة إلى عمرو. والظاهر أن متابعة هذه الأقوال لا يتفق وتلك البواعث الجادة الملحة التى لا يخالطها ريب أو تردد فى فتح مصر، استكمالا لفتح الشام والقضاء على الدولة البيزنطية قضاء مبرما.

والذى يمكننا أن نتقبله فى ذلك هو أن الخليفة أذن لعمرو فى فتح مصر، وأنه عقد له على أربعة آلاف رجل، ولكنه عاد فتخوف وتدم بعد أن أبان له عثمان حرج موقف عمرو لقلته من معه. فكتب إلى عمرو كتابه الشهير، يعده بإمداده إن كان قد دخل أرض مصر فعلا. وعلى هذا النحو تستقيم مدافعة عمرو للرسول الذى حمل كتاب الخليفة إلى أن يكون قد دخل بالفعل فى أرض مصر. وقد أدرك الكتاب عمرا فى قرية بين العريش ورفح داخل حدود مصر حيث فض الكتاب، ثم سار على بركة الله وبعونه<sup>(٣)</sup>. فبلغ

(١) ملن، ص ١١٥-١٢٥.

(٢) المقرئى ج ١ ص ٢٨٨، ابن عبد الحكم ص ٥١.

(٣) ابن عبد الحكم ص ٥١ - ٥٢.

العريش بعد أن اخترق رمال سيناء، وكان ذلك أواخر سنة ١٨هـ، ولم يلق كبير عناء في فتحها<sup>(١)</sup>.

وانصرف عمرو متجها نحو الغرب، دون أن يشترك مع جند الروم في قتال حتى وصل الفرما أو بيلوز، وهى مدينة قديمة العهد حصينة، لها كنائس وأديرة وميناء على البحر، يصل إليها جدول من النيل، وكانت تمثل مفتاح مصر فى ذلك الوقت، وكان جند الروم يعتصمون بحصونهم، فحاصروهم عمرو، واستطاع المسلمون أن يسبقوهم ذات مرة إلى هذه الحصون فافتضوها، وتم لهم احتلال المدينة أوائل سنة ١٩هـ<sup>(٢)</sup>.

وتقدم عمرو دون أن يجد مدافعة، بعد الاستيلاء على مفتاح مصر وعلى القاعدة التى يستطيع النكوص منها إن اقتضى الأمر تراجعاً، وتلقى الأمداد عن طريقها إذا ما تقدم. ووصل إلى بلبيس، وبعد حرب دامت شهراً تم للمسلمين فتحها، وهزم الروم وألحق بهم خسائر فادحة. وبالإستيلاء على بلبيس أصبح المسلمون على مسيرة يوم واحد من رأس الدلتا<sup>(٣)</sup>.

ومضى عمرو حتى أتى أم دين<sup>(\*)</sup> شمال حصن بابليون، وهى قرية على النيل عند مأخذ خليج تراجان، الذى يصل مدينة مصر بالبحر الأحمر عند السويس، وكانت حصينة يجاورها مرفأ فيه سفن كثيرة، وكانت مسلحتها طليعة الدفاع عن حصن بابليون العظيم. وأدرك عمرو دقة الموقف فإن الروم قد لاذوا إلى الحصن بكل قواتهم، وأمدوا أم دين بمسلحة قوية، وتهيأوا بذلك لقتال فاصل، وجاءته عيونه بأبناء عرف منها أنه لن يستطيع أن يفتض هذا الحصن أو يحاصره بمن معه من الجند، فضلا عن فتح مدينة مصر التى تقع فى حماية الحصن، فعول على حصار أم دين وحصنها، فإن استولى عليه سارت السفن تحت إمرته، وأصبح فى مقدوره أن يدبر أمره.

وكان الخذر يقتضى عمراً ألا يفرط فى رجاله، وأن يستعجل الخليفة المدد ليضعف الأمل فى قلوب جنده، فبعث رسالة إلى عمرو وأذاع فى الجند أن المدد موشك أن

(١) حسن المحاضرة، ج ١ ص ٤٦، المقرئى ج ١ ص ٢٨٨.

(٢) ياقوت ج ٣ ص ٨٨٤.

(٣) بئر ص ١٩١.

(\*) حتى الأريكية الآن.

يجيء، ثم تقدم إلى أم ذنين فحاصرها، ووقف قبالتها يمنع عنها العتاد والميرة، ولم يفكر الروم المقيمون في الحصن أن يخرجوا، بعدما رأوا مصير بليس. أما مسلحة أم ذنين فكانت تخرج إلى القتال أحيانا ثم ترتد إلى حصنها، ولم يتغير الموقف خلال أسابيع، وإذا بالمدد قد أقبل ورآه أهل الحصن فأسقط في أيديهم. وكان عمرو قد عرف مداخل الحصن ومخارجه، فتخير وقتا أمر فيه أصحابه أن يشدوا جميعهم شدة رجل واحد، وسار في طليعتهم، ففتح الله عليهم بعد مقتلة عظيمة، وبعد أن أسروا من بقى فيه حيا<sup>(١)</sup>.

ونزل عمرو أم ذنين، ثم عبر مع جنده النيل في سفنها، وساروا يتخطون الصحراء مجتازين أهرام الجيزة، وهناك على الجانب الغربى على النيل دارت معركة حامية كانت للمسلمين على حنا وجنده. ثم عاد عمرو إلى بابليون، لما علم نبأ الأمداد التى فى طريقها إليه<sup>(٢)</sup>.

واستطاع أن يلتقى بالمدد، ويبلغ عسكر المسلمين فى هليوبوليس، حيث ضيع على تيودور الفرصة، واغتبط عمرو بالمدد الذى أتاه، وفيه الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلد، وعسكر المسلمون فى عين شمس وجاءته الأنباء بأن تيودور أمير جند الروم قد تداول مع أصحابه، فرأوا أن مقامهم بالحصن يظهرهم أمام المصريين بمظهر الجبن والخور، ويغرى الناس بالانضمام إلى المسلمين ومعاونتهم، فعزموا على الخروج لإجلاء المسلمين عن عين شمس، ودبر عمرو خطته، فسير خمسمائة من رجاله تحت الليل من وراء الجبل حتى دخلوا مغار بنى وائل عند قلعة الجبل، وأخرج خارجة بن حذافة فى خمسمائة آخرين ساروا قبيل الفجر إلى أم ذنين، ولما تنفس الصبح سار بمن معه حتى بلغ مكان العباسية الآن وأقام ينتظر. وخرج الروم وتقدموا إلى عين شمس فبلغهم أن عمرا تقدم يريد لقاءهم، فاستخفهم الطرب وأيقنوا بالظفر، وتعاهدوا على الاستبسال. والتقى الفريقان فأنشبو القتال، وإنهم كذلك، إذ انحدرت الكتيبة المختبئة فى مغار بنى وائل فعصفت بمؤخرة الروم عصفا فاضطربوا وأخذهم الفرع وتقهقروا إلى أم ذنين، وعندئذ خرج كمين خارجة فأمعن فيهم قتلا، ولاذ معظمهم بالفرار، وبلغت طائفة

(١) هيكال، الفاروق ج ١ ص ١٠٢.

(٢) بئر ص ١٩٨.

منهم الحصن فلاذت به، وفتح آخرون إلى النهر، ومال العرب فاستولوا على حصن أم دنين كرة أخرى، وانتصروا نصرا مؤزرا وطد أقدامهم في مصر<sup>(١)</sup>.

ثم نقل عمرو عسكره من عين شمس إلى شرقى الحصن وشماله، وجاءته الأنباء بفرار حامية الروم إلى نقيوس، فجهز كتيبة استولت على إقليم الفيوم كله، وقوة أخرى استولت على إقليم المنوفية. وحيث أخذ الناس يفرون إلى الإسكندرية هلعاً<sup>(٢)</sup>. ولم يكن عمرو ليطهره الظفر فيقصد إلى الإسكندرية قبل أن يفتض حصن بابلون، وحاصره وهو يعلم أن الحصار سيطول، لارتفاع النهر وتدافع تياره، ولمناعة الحصن واكتفائه بما فيه من ميرة وماء وعتاد. وكان الروم يرمون المسلمين بالمنجنيق، فيجيبهم العرب بالحجارة والسهام، ومضى شهر ولم يتزحزح المسلمون، بينما وهن الروم ويثسوا من وصول أمداد إليهم، فتشاور المقوقس مع قومه على التفاوض مع العرب، ورأوا أن تكون المفاوضة سرية، فتسلل مع جماعة من قومه، وركبوا السفن إلى جزيرة الروضة، حيث أرسلوا إلى عمرو يطلبون التفاوض معه، وكان رد عمرو بعد أن احتجز الرسل يومين أن يختاروا بين الإسلام أو الجزية أو القتال، فرد رسله يطلبون أن يرسل المسلمون رسلا يحادثونهم. فبعث عمرو بعبادة بن الصامت ونفر معه. وتكلم عبادة وذكر ما جاءهم به رسول الله ﷺ من الحق والهدى، وأعجب المقوقس بكلامه، ومال إلى تهديده وإغرائه فلم يفلح معه، ولم يتزحزح عن واحدة من ثلاث خصال، وفشلت المفاوضات وعادت الحرب، وأمهلهم عمرو ثلاثة أيام، غير أن عمل المقوقس ذاع في الناس فثارت ثائرتهم، وأبوا إلا القتال.

وتجهز أهل الحصن، وخرجوا عند انتهاء الهدنة بغتة، فأخذوا العرب المسلمين على غرة، ولم تذهل البغثة العرب، وأسرعوا إلى سلاحهم، وقاتلوا الروم قتالاً شديداً، فتكاثرت المسلمون عليهم وألجئوهم إلى الحصن، بعد أن قتلت منهم مقتلة عظيمة<sup>(٣)</sup>.

وخطب المقوقس عمرا في الصلح فأجابته إليه<sup>(٤)</sup>. وعلق نفاذ الصلح على رضا الإمبراطور، فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم، وإلا كانوا جميعاً على ما كانوا عليه<sup>(٥)</sup>.

(١) بتلر ص ٣٢٠-٣٢٣.

(٢) هيكل، الفاروق، ص ١١٠.

(٣) بتلر ص ٢٦٢.

(٤) ابن عبد الحكم ص ٦٤.

(٥) نفس المرجع.

واستدعى الإمبراطور المقوقس إلى القسطنطينية، حيث أنبه واتهمه بالخيانة، ونفاه وهدده بالقتل<sup>(١)</sup>. وعلم المسلمون برفض الصلح، فانتهت الهدنة وعاد القتال بين الفريقين، فألقى الروم في الخندق حسك الحديد، وعطلوا تقدم المسلمين إلى الحصن، وأقاموا على التراشق بالحجارة والسهم حتى تصرمت أشهر الشتاء، وجاءت الأنباء بموت هرقل ولكن الحصن ظل يقاوم.

وضاق العرب بطول الحصار الذى استمر شهورا سبعة، وهانت عليهم أنفسهم حتى وهب الزبير نفسه لله، وأتى فى جنح الليل بكتيبة آزرته فظموا الخندق، ووضعوا سلما علاه الزبير، وانطلق يكبر وتبعه أصحابه وكبروا، وأجاب المسلمون من خارج الحصن، فلم يشك الروم فى أن العرب اقتحموا الحصن فهربوا، وعمد الزبير إلى باب الحصن ففتحه، ودخله المسلمون واستولوا عليه<sup>(٢)</sup>.

وبعد سقوط بابلين: انفتح الطريق أمام المسلمين نحو مصر السفلى وريفها، ولكن الترع والفيضانات والقنوات وفيضان الماء، كل هذا جعلهم يطلبون مساعدة الأهالى، الذين استجابوا لهم وصاروا لهم أعوانا<sup>(٣)</sup>. واستغرق مسير عمرو إلى الإسكندرية اثنين وعشرين يوما، وكان الروم قد تقهقروا إليها للاحتماء بها، فهى قصبة البلاد وسقوطها يعنى زوال سلطان الروم عن مصر زوالا تاما؛ ولهذا فقد أخذت الجيوش الجراة تنتهى إليها عن طريق البحر، والحاميات تفر إليها عن طريق البر، وأغلقت حامياتها الأبواب وتحصنوا.

وكان أول صدام للمسلمين فى طريقهم بالروم عند عبورهم فرع رشيد إلى الغرب، عند ترنوط<sup>(٤)</sup>، وكان قتال طفيف، انتصر فيه المسلمون<sup>(٤)</sup>. وأرسل عمرو من هناك حملة بقيادة شريك بن سمي، لقيت الروم عند الكوم الذى سمي باسمه، فنصر الله المسلمين<sup>(٥)</sup>.

(١) بتلر، ص ٢٦٤.

(٢) ابن عبد الحكم ص ٥٨.

(٣) ابن عبد الحكم ص ٦٤.

(٤) نفس المصدر ص ٦٦.

(٥) غرب رشيد.

(٥) نفس المصدر والصحيفة.

ومضى عمرو، إثر استنجد شريك به، فالتقى بالروم فى سطليس أو سنطيس<sup>(٥)</sup>، حيث اقتتلوا قتالا عنيفا بها، وكانت العاقبة للمسلمين. وبعد مسيرة عشرين ميلا التقى المسلمون بالروم عند الكريون، وكانت مسلحة عليها خيل ورجال<sup>(١)</sup>، وهناك اقتتلوا بضعة عشر يوما قتالا شديدا، فقد كانت الكريون آخر سلسلة من الحصون قبل الإسكندرية، وإليها فر المنهزمون فى سطليس، وانضموا إلى سائر جند الروم فى مسلحة الكريون، وعليهم تيودور، الذى استمات فى الصمود أمام العرب، إذ أدرك أنهم إن ينهزموا بالكريون تنكشف العاصمة أمام العرب، فرأى الحيلولة بين الغزاة وبلوغ الإسكندرية خيرا من الدفاع عنها. وأخذ الروم ينسلون من الإسكندرية إلى الكريون، وأقبلت حاميات من سخا وخيس وبلهيب.

والتقى عمرو بالروم واشتد القتال شدة لم تؤلف فيما سبقها من المعارك، وظلوا هكذا حتى فصل بينهم الظلام، ثم استحر القتال فى صبيحة اليوم الثانى، ثم انفصل الفريقان فى آخره، وظل القتال هكذا دائرا بضعة عشر يوما، ترجح فيه كفة المسلمين تارة وترجح كفة الروم تارات، وأظهر الروم من ضروب البراعة والبسالة وشدة البأس وصلابة العود ما أدخل الروح فى قلوب المسلمين، حتى لقد صلى عمرو صلاة الخوف ركعة وسجدين مع كل طائفة من جنده، ولكن هذا لم يذهب عزم المسلمين ولم يضعف روحهم، بل زادهم صلابة وإيمانا، ثم أنزل الله نصره وتم فتح الله للمسلمين، وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة، وأتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية<sup>(٢)</sup>.

وكان الروم قد تحصنوا بالإسكندرية. وقدر عمرو أن هزيمتهم فى الكريون لا بد أن تكون قد أدخلت الروح إلى نفوسهم، فلم يتردد عندما رأى ترقب الجند وحماستهم، فأمرهم أول مقدمهم باقتحام أسوار المدينة وأبراجها، ولم يشك المسلمون فى أن المدينة ستفتح أبوابها لقاء هجمتهم، فاندفعوا مهللين فلم يرعهم إلا الحجارة العظيمة تساقط عليهم مقذوفة من المجانيق المنصوبة فوق أسوار المدينة، ذلك أن تيودور أيقن أن الظفر

(٥) سنة أميال جنوبى دمنهور.

(١) المسالك، ص ٩١.

(٢) ابن عبد الحكم ص ٦٦، بئر ص ٢٥١.

سينى المسلمين الحبيطة، فيندفعون إلى مهاجمة المدينة، فأدخل الجيش حصون المدينة وأخلى ضواحيها، وأقام القاذفين على أسوارها، فعادوا عمرا حذرُه وانسحب وراء مرمى المجانيق، فعسكر بجنده وتأمل عمرو موقفه، فالمدينة حصينة حصانة طبيعية، يحميها البحر من شمالها والإمدادات مستمرة عن طريقه<sup>(١)</sup>، وبحيرة مربوط تحميها من الجنوب، وترعة الثعبان تدور حولها من الغرب، وليس أمامه إلا الشرق وهو الطريق بينها وبين الكريون، ومن هذه الناحية كانت الحصون والأسوار أشد مناعة. واستقر رأيه أن يقف بعيدا عن مرمى المجانيق، فإذا طال الحصار بالروم شعروا بما في ذلك من مذلة فيخرجون، ويتمكن المسلمون منهم، فأقام بجنده بين الحلوة وقصر فاروس شهرين كاملين<sup>(٢)</sup>، ثم نقل عسكره إلى المقس، فخرجت إليه الجند من ناحية البحيرة، فواقعه وقتلوا من المسلمين نفرا بكنيسة الذهب<sup>(٣)</sup>، وارتدوا إلى حصونهم. وظل الروم محصورين لا يخرجون، وبقي المسلمون قبالتهم لا يريمون، لكن عمرا رأى أن الموقف قد يتجمد على هذا النحو، مما يدفع إلى نفوس جنده السأم، ويشعرهم بالعجز عن مناجزة عدوهم. وقد اهتمدى إلى أن يحقق أغراضه جميعا، فيزيل سأم جنده بأن يرسل كتائب تجوس خلال بلاد الدلتا تطارد الروم فيها، وأن تبقى كثرة الجند على حصار الإسكندرية وبذلك يستكمل أيضا ما كان بدأه من بعوث، وهو على حصار بابليون.

وظلت كثرة الجند أمام الإسكندرية ولم يتغير الموقف، إلا ما كان يحدث من مناوشات طفيفة لا تبلغ أن تكون حربا. على أن إمدادات الإسكندرية عن طريق البحر ما لبثت أن توقفت بعد قليل، فقد شغل أهل بيزنطة بما ساد بلاطهم من اضطراب، وما حل بعاصمتهم من انتقاضات بعد موت هرقل<sup>(٤)</sup>، وتزعزعت الروح المعنوية لحماية الإسكندرية، وفت في أعضادهم توقف الأمداد، وازدادت مخاوفهم من أن يتغلب العرب على البلاد الساحلية، فيقطعوا عنهم ميرتها، بعدما وصل إليهم من انتشارهم في الدلتا ومصر العليا والسفلى.

(١) ابن عبد الحكم ص ٦٨-٦٩.

(٢) ابن عبد الحكم ص ٦٧.

(٣) ابن عبد الحكم ص ٦٨.

(٤) بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١١٩-١٢٠.

وفى هذه الفترة كان الخليفة بالمدينة يتميز غيظا من إبطاء الفتح، الذى كان يتسم أنباءه يوما إثر يوم، وراح يعلل لصحابته إبطاء الفتح بما أحدث المسلمون، وبما أغرتهم به خيرات مصر من تعلق بالدنيا وشره إلى نعيمها، فكتب إلى عمرو كتابا ضمنه هذا ودعاه فيه إلى أن يحض الجند، وأن يرغبهم فى الصبر وحنن النية، وأن يقدم الأربعة الذين عد كل واحد منهم بألف رجل حينما أمده بهم.

وقرأ عمرو الكتاب فى جنده، ودعا بالأربعة الذين ذكروا فقدمهم، وأمر الناس أن يتطهروا وأن يصلوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله عز وجل ويسألوه النصر على عدوهم، ثم دعا عبادة بن الصامت فعقد له وأولاه قتال الروم، ثم انطلق إلى بابلين، يدير حركة بعوئه إلى أقاليم الدلتا والصعيد.

وفتح الله الإسكندرية على يدى عبادة ودحر الروم، وسارع المقوقس إلى عمرو فى بابلين، ليعقد معه معاهدة الإسكندرية التى تعرف بمعاهدة بابلين الثانية، تميزا لها عن معاهدة بابلين الأولى<sup>(١)</sup>. وقد نص فيها على أن يرجع المسلمون عامهم هذا حتى يرحل عنها جيش الروم، خلال أحد عشر شهرا تنتهى فى أواخر سنة ٢١هـ.

ولما دخل المسلمون الإسكندرية ذهلوا لروعة عمارتها ومدارسها ومكاتبها وقبابها ومنارتها ومسلماتها ومعابدها<sup>(٢)</sup>، وأخذوا بعد ذلك يستقرون بمصر، وبينون الفسطاط والخطط، ويرسلون البعوث لإتمام فتح منصر جميعها. وأخذوا كذلك فى حفر قناة تراجان، وما تضى ثلاث سنوات حتى يحيك قسطنطين بن هرقل مؤامرة تستهدف استنقاذ مصر، بقيادة (منويل) الخصى الأرمنى، الذى نزل الإسكندرية فى أسطول بيزنطى كبير، فاحتل الإسكندرية ونكل بالمسلمين تنكيلا. ويضطر عثمان بن عفان خليفة المسلمين حينذاك إلى أن يصلح الأمر بما صلح به أوله، فاستدعى عمرو بن العاص ذلك الفاتح الرائد، ليعين والى مصر عبدالله بن سعد بن أبى سرح لدرأته بحرب الروم، بناء على رغبة أهل مصر<sup>(٣)</sup>.

(١) سيدة إسماعيل الكاشف، مصر فى فجر الإسلام ص ١٤.

(٢) بتلر ص ٣١٩.

(٣) البلاذرى ص ٢٣٣.

وبرغم استماتة الروم فقد أذاقهم عمرو نفس الكأس، وهزمهم هزيمة منكرة عند نقيوس، وعاد منويل طائرا إلى الإسكندرية ففتح حصن بها، ونصب المجانيق على أسوارها<sup>(١)</sup>. ويقف عمرو أمام هذه الأسوار التي دوخته من قبل، ليقسم أن يسوى التراب بها، وأن يجعلها كبيت الزانية يؤتى من كل مكان، واحتال حتى استمال حراس المدينة، ثم أعمل السيف في حاميئها وقتل منويل، وكان ذلك في السنة الخامسة والعشرين للهجرة<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من ذلك فإن الروم لم تيسهم هزيمتهم، فقد حاولوا بعد تسع سنوات في عهد الإمبراطور قسطانز أن يعادوا هجماتهم البحرية، وأعدوا لذلك أسطولا جديدا، غير أن المسلمين كانوا قد ركبوا البحر وحذقوا حروبه، فأوقعوا بالأسطول البيزنطى، ولقيت فلوله عاصفة هوجاء أتت عليها، وهكذا استتب الأمر في مصر للمسلمين<sup>(٣)</sup>.



خضع للمسلمين إقليم مصر، من الإسكندرية إلى أسوان، ورأى عمرو أن تتجه بعض بعوث الجيش إلى الجنوب لتأمين الحدود، حيث تضرب القبائل في أرض النوبة، تلك الأرض التي تشبه أرض شبه الجزيرة، إذ تغلب عليها الصحراء، وتربطها بها صلات تجارية دفعت بعض التجار العرب في الجاهلية إلى التسرب إليها.

ولعل هذا الشبه وهذه الصلات، وما كان من غلبة المسلمين على مصر، وماتخمتهم لأرض النوبة هي التي أغرتهم بهذه البعوث.

ويروى البلاذرى، أن جيش المسلمين بقيادة عقبة بن نافع الفهري اضطر أن يعود بعد معركة قاسية، أصابت فيها سهام أهل النوبة أحداق المسلمين، فقتلوا بالجراحات، وذهاب الحدق من جودة الرمي، وسمى أهل النوبة برماة الحدق<sup>(٤)</sup>. وظل القتال ينشب بعد ذلك حتى انتهى إلى الصلح على هدية عدة رؤوس منهم يؤدونها إلى المسلمين في

---

(١) النجوم الزاهرة ص ٦٥ - ٦٦.

(٢) المقرئى ج ١ ص ١٦٧.

(٣) بتلر ص ٤٢٤.

(٤) الطبرى ٢٥٩٣/٥/١ وسكت عن ذكر القائد.

كل سنة، ويهدى إليهم المسلمون كل سنة طعاما مسمى، وكسوة من نحو ذلك<sup>(١)</sup>. وقد أمضى هذا الصلح عثمان بن عفان، فى ولاية عبدالله بن سعد بن أبى سرح، وأقره الولاة والأمراء من بعده نظرا منه للمسلمين وإبقاء عليهم<sup>(٢)</sup>.

ويبدو من هذا أن الجنوب قد استعصى، حتى إن الخليفة يضطر إلى قبول هذا الصلح إبقاء على المسلمين. وهذا يوضح ما كان من صدوف المسلمين عن هذا الميدان، إذ لم يجدوا ما يغيرهم فيه، فمضوا عنه يجوبون البلاد فى غربى مصر، ويجهزون على ما تبقى من ولايات بيزنطة فى هذا الصقع من الأرض.



كان ضروريا أن تؤمن حدود مصر الغربية ضد هجمات الروم، إذا حدثتهم أنفسهم باستردادها. فحدود مصر الغربية تلاصق ولاية ليبيا البيزنطية فى هذا الوقت، وكانت تحت الحكم البيزنطى سواء، وكثيرا ما كان إقليم مربوط يضاف إلى ليبيا تعويضا عن إقفارها<sup>(٣)</sup>.

فسار عمرو فى أواخر سنة ٢٦هـ بعد فتح الإسكندرية فى كتيبة من فرسانه حتى وصل إلى برقة، وهى حد مصر من الغرب، ولم يلق المسلمون فى فتحها كبير كبد، إذ لم يذهب إليها غير الخيل، ويغلب أن تكون قد فتحت صلحا<sup>(٤)</sup>، ثم بعث عمرو عقبة بن نافع الفهري فافتتح زويلة صلحا، وأصبح ما بين برقة وزويلة ملكا للمسلمين<sup>(٥)</sup>. وسار عمرو حتى وصل إلى طرابلس، وحاصرها عدة أسابيع إلى أن استسلمت، بعد أن كاد الجوع وشدة القتال يهلكان أهلها، وعاد من ثم إلى برقة، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر (إنا قد بلغنا طرابلس، وبينها وبين إفريقية (تونس) تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا فى غزوها فعل). فكتب إليه عمر ينهاه، ويأمره بالوقوف عند هذا الحد، فعاد من هناك

(١) نفس المرجع..

(٢) نفس المرجع.

(٣) بتلر ص ١٠.

(٤) السيوطى ج ١ ص ٦٣.

(٥) الطبرى ١/٥/٢٦٤٦ والبلانزى ص ٢٢٤.

كارها، واستخلف عقبة بن نافع الفهري، الذى صار إليه بعد ذلك فتح المغرب<sup>(١)</sup>. وإن كان فتح برقة وطرابلس مؤمنا لحدود مصر، فإنه كان من ناحية أخرى مقدمة للانسياح فى إفريقية. وقد ساعد على هذا أن هاتين البلديتين كانتا هادتين، وكان أهلهما يعثون بخراجهم إلى والى مصر، من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث، ولم تدخل بلادهم فتنة<sup>(٢)</sup>.

وأخذ المسلمون يتوسعون فى المناطق الداخلية فى برقة وطرابلس، فاستولوا على فزان وودان، وتولى الأولى بشر بن أبى أرطاة، والثانية عقبة بن نافع. وكان ذلك فى أوائل سنة ٢٣هـ. وتقدم المسلمون غربى طرابلس إلى سبرت<sup>(٣)</sup>. ومن ثم أخذ اسم عقبة بن نافع يتلألأ فى هذه المناطق، وتوالت البعثات الإسلامية للاستطلاع. فكان عمرو يرسل الجريدة من الخليل فتصيب الغنائم ثم ترجع<sup>(٤)</sup>. وكذلك فعل عبدالله بن سعد بن أبى سرح<sup>(٥)</sup>.

وفى عهد عثمان استأذن عبدالله بن سعد بن أبى سرح فى فتح إفريقية سنة ٢٥هـ فأذن الخليفة له بعد المشورة، وانتدب الناس، وأمر عليهم الحارث بن الحكم، إلى أن يقدموا على عبدالله فيكون له الأمر<sup>(٦)</sup>.

وتقدم عبدالله فى عشرين ألفا، حيث دارت معركة عنيفة بين المسلمين بقيادته وجيش جرجير، وانتصر المسلمون بعدما قتل عبدالله بن الزبير جرجير، واضطر جيشه للهرب، وتعقبه المسلمون وبثوا سراياهم فى المنطقة، فعادوا بغنائم كثيرة. ولما رأى ذلك رؤساء إفريقية طلبوا إلى ابن أبى سرح أن يصالحهم على الخروج من بلادهم، وأن يأخذ فى مقابل ذلك أموالا، فقبل ورجع إلى مصر، دون أن يولى أحدا عليها، أو يتخذ

---

(١) البلاذرى ص ٢٣٣.

(٢) البلاذرى ص ٢٢٤.

(٣) ابن عبد الحكم ص ١٧٢.

(٤) ابن عبد الحكم ص ١٧٣.

(٥) ابن عبد الحكم ص ١٧٣.

(٦) ابن عبد الحكم ص ١٨٣.

قيروانا<sup>(١)</sup> مكثفيا بالريادة والاستطلاع، وما حاز عن غنائم، وربما كان سبب هذا الإجراء وصول أنباء حملة قسطنطين إليه.

ثم لا نسمع شيئا عن هذا الميدان طوال حكم الراشدين، حيث لعبت الأحداث دورها في تعطيل الفتح، وأسهمت الفتنة فى صرف المسلمين عنه. ولكن عندما يجتمع الأمر لمعاوية، ويتولى مصر معاوية بن خديج يتجه المسلمون من جديد إلى إفريقية ليدخلوها فى إطار الدولة الإسلامية.



---

(١) ابن عبد الحكم ص ١٨٣.



## الفصل الثاني

### الشعر في الفتوح الشرقية

#### ١- كثرة الشعر على السنة الفاتحين

يكاد شعر الفتوحات الإسلامية كله أن يكون وليد الفتوح الشرقية وحدها، ذلك أن هذا الشعر كثير كثرة مطلقة إذا ما قورن به شعر الميادين الأخرى؛ ولهذا يجمل بنا أن ننعم النظر في ظروف هذه الفتوحات بالذات، وأن نتعرف إلى هؤلاء الفاتحين الذين هاجروا إلى هذا الميدان من شبه الجزيرة العربية، علنا نجد تفسيراً لهذه الظاهرة، مما يعيننا على تفهم شعرهم والظروف التي صدر فيها، ومحاولة التعرف على الفاتحين في هذه المناطق ليست أمراً هيناً ولا يسيراً، لكثرة الجيوش التي اندفعت إلى الفتح متتابعة وكثرة الإمدادات التي لحقت بها، ولانعدام الأسس التي كانت تصنف بوحيتها هذه الجيوش وتلك الإمدادات.

والذي يبدو جلياً للدارس أن الجيوش الإسلامية لم تكن تصنف على أية أسس أو داخل إطار معين، فكان يحدث أن يبعث الخليفة إلى البلدان والقبائل يستنفرها ويرغبها في الجهاد، فتوافى إليه الجموع من هنا وهناك، فيصرفها في الوجهة التي تملئها عليه ظروف الأحداث وطبيعتها. وتذكر بعض الروايات أن أمير المؤمنين كان إذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان أمر عليهم رجلاً من أهل العلم والعفة<sup>(١)</sup>، وبرغم هذا فإنه يمكن للباحث أن يلاحق هذه الجيوش وتلك الإمدادات ملاحقة دقيقة، حتى يستطيع أن يرسم صورة تقارب الأصل أو تدل عليه، وتلقى على هذه الظاهرة بعض الضوء.

كان أول من مهد للفتح الإسلامي في العراق المثنى بن حارثة الشيباني، الذي انضم إلى العلاء بن الحضرمي في مقاتلة المرتدين، على رأس من بقى على الإسلام من أهل هذه النواحي التي تساحل الخليج الفارسي إلى الشمال، وقد رأينا أنه نزل في قبائل العرب الذين يقيمون بدلتنا النهرين فتحدث معهم وتعاهد، ولا ريب في أن هذه القبائل التي

(١) الطبري ١/٥/٢٧١٤.

تعاهد معها وشكل منها كتيبه كانت من بكر وإياد وتغلب والنمر ولحم سكان هذه المناطق، فضلا عن قبيلته شيبان التي كانت تنزل البحرين.

وقد صدع خالد بن الوليد بأمر أبي بكر الذي ألقاه إليه وهو باليمامة<sup>(١)</sup> عقب فراغه من مسيلمة، فنهذ في اللواء الذي عقده له أبو بكر لحرب المرتدين في بني أسد وبني تميم، وهو لواء اختاره خالد بنفسه، فكان من أمنع الألوية وأقواها، وكان به خيرة المقاتلة من المهاجرين والأنصار<sup>(٢)</sup>. وانضم إلى هذا اللواء قوم عدى بن حاتم من طيء، فقاتلوا طليحة بن خويلد مع المسلمين. وكذلك فعل كثرة جديلة، فلحق بالمسلمين منهم ألف راكب<sup>(٣)</sup> ولقد كثر في هذا اللواء القتلى من الحفاظ، فقل عدده وتناقص بعد ذلك، حينما أمر أبو بكر بتسريح من يرغب في الرجوع، وكثرتهم من أهل المدينة، وبألا يستفتح بمتكاره. وأمد أبو بكر خالدًا حين استمده بالقعقاع بن عمرو التميمي، ولما سأله الناس أمد رجلا قد انفض عنه جنده برجل واحد!؟ قال: «لا يغلب جيش فيه مثل القعقاع، إن صيحته في الجيش بألف رجل»<sup>(٤)</sup>، وبعث إليه مع القعقاع بأن يستنفر من قاتل أهل الردة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، فاستنفر خالد الأمراء الأربعة: حرملة وسلمى والمثنى ومذعور، وكانوا في ثمانية آلاف من ربيعة ومضر، إلى ألفين كانوا معه، وقدم بهم على جند المثنى، ويذكر أنه كان ثمانية آلاف<sup>(٥)</sup>.

أما عياض بن غنم الذي كان عليه أن يأتي العراق من أعلاه ليلتقى مع خالد في الحيرة<sup>(٦)</sup> فإننا لا نعلم شيئًا عن تكوين جنده، ولا تفيد الروايات عنه خبرًا، وإن كان المظنون أن كثرته كانت من ربيعة ومضر.

وبطبيعة الحال لم تبق هذه النواة على حالتها الأولى، إذ انضم إليها وانسلخ عنها جند كثيرون، والتقى خالد بهذا الجيش مع الفرس في سلسلة من المعارك، انتصر فيها

(١) الطبري ٢٠٢١/٤/١.

(٢) الطبري ٢٠٢٢/٤/١.

(٣) هيكل، أبو بكر ص ٢١٩.

(٤) الإصابة ج ٥ ص ٢٤٤.

(٥) هيكل، أبو بكر ص ٢١٩.

(٦) الطبري ٢٠٢١/٤/١.

المسلمون حتى دخل الحيرة، وهناك وزع عماله وخلف القعقاع على الحيرة والزبرقان بن بدر على الأنبار<sup>(١)</sup>، ثم خرج لإغاثة عياض بدومة الجندل، وارتد إلى الحيرة بعد أن أدى مناسك الحج، حيث تلقى كتابا من أبي بكر يندبه إلى الشام، وفصل خالد في نصف الجند<sup>(٢)</sup>، وحرص على أن يكون معه صحابة الرسول ﷺ، حتى أحفظ المثنى الذي خلفه على أمر العراق فيمن كانوا معه من قبل على الأرجح<sup>(٣)</sup>.

وبرغم أن المثنى انتصر بهذا الجيش على الفرس في بابل إلا أنه وجد نفسه بحاجة إلى الأمداد، فخلف بشير بن الخصاصية وانطلق إلى المدينة، حين كان الخليفة الأول يجهز الجيوش لفتح الشام، إثر كتاب خالد بن سعيد<sup>(٤)</sup>.

وكان الخليفة مريضا، ويبدو أن المدينة كانت تعاني هي الأخرى نقصا في الرجال، فأخذ المثنى يدافع عن وجهة نظره أمام أبي بكر في أن يؤذن له باستفسار من ظهرت توبته من المرتدين<sup>(٥)</sup>. ولم يمهّل القدر الخليفة ليندب الناس مع المثنى، فلحق بربه بعد أن أوصى عمر بأن يفعل، وأن يرد كتيبة خالد إلى العراق - إن فتح الله عليهم - فإنهم أهله وأحق به<sup>(٦)</sup>. واستفتح عمر عهده بتنفيذ وصية أبي بكر، فرفع الحظر عن عادوا إلى الإسلام من المرتدين، واستمالهم كي يسارعوا إلى التطهر بجهادهم من حوبة ردتهم. وأخذ عمر يندب الناس أياما أربعة، وكان أول من انتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي، فأمره عمر على ألف من الأنصار<sup>(٧)</sup>، وأقبل المتطهرون من كل صوب، فرمى بهم عمر إلى العراق والشام<sup>(٨)</sup>.

وفي هذه القوات يسير أبو عبيد ليلحق بالمثنى وجنده بخفان، حيث يخوضان ضد الفرس معارك متتصرة، حتى كانت معركة الجسر وقتل أبو عبيد، وأصيب في أربعة آلاف

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٥٨، ٢٠٦٢، ٢٠٦٧.

(٢) الطبرى ١/٤٠/٢٠٨٩.

(٣) الطبرى ١/٤/٢١٢٢.

(٤) الطبرى ١/٤/٢٠٨٢.

(٥) الطبرى ١/٤/٢١٢٠.

(٦) نفس المرجع.

(٧) الطبرى ١/٤/٢١٦١.

(٨) الطبرى ١/٤٠/٢١٦٥.

من جنده بين قتيل وغريق وجريح، وفر ألفان بينما ترك المثنى في ثلاثة آلاف<sup>(١)</sup> انسحب بهم إلى أليس، وبعث يستمد عمر، ولم يكتب بهذا، فبعث فيمن يليه من قبائل العرب، حيث توافى إليه جمع عظيم من نصارى بنى النمر.

وأخذ عمر يندب الناس، ويلقى في ذلك حرجا وقسوة، وقد كان وجه فارس من أشد الوجوه عليهم وأكثره لهم<sup>(٢)</sup>، وزاده يوم الجسر جهامة وقسوة. وتمكن من استصلاح جرير بن عبدالله البجلي في قومه، بعد أن جمعهم من القبائل وأراد بهم الشام<sup>(٣)</sup>، ورأى الناس ما صنع بنو بجيلة فحدوا حدوهم، وكان فرار الجسر في مقدمتهم، ثم تابعهم بنو الأزد وعليهم عرفجة بن هرثمة البارقي وبنو كنانة وعليهم غالب بن عبدالله، وكانوا جميعا سبعمائة<sup>(٤)</sup>، ثم تبعهم نفر من الرباب أمر عليهم هلال بن علفة التميمي<sup>(٥)</sup>، وتحمل قوم كثيرون من مختلف القبائل في نسائهم وأبنائهم، منهم ابن المثنى الجشمي في قوم من بنى سعد، وعبدالله بن ذى السهمين في أناس من خثعم، وربيع بن عامر وابنه شبت في أناس من بنى حنظلة، ويقوم من بنى ضبة عليهم ابن الهوير والمنذر بن حسان، وبأناس من عبد القيس عليهم قرط بن جماح العبدي<sup>(٦)</sup>، وبعث إليه بأنس بن هلال في أناس من النمر، وبعده الله بن كليب بن خالد في أناس من تغلب<sup>(٧)</sup> وحقق المثنى بهذه الأمداد انتصارات محققة في البويب. وكتب عمر إلى المثنى - بعد أن ثار السواد - ألا يدع في ربيعة ولا مضر ولا حلفائهم أحدا من أهل النجدات ولا فارسا إلا جلبيه، فإن جاء طائعا وإلا حشره<sup>(٨)</sup>. وكتب إلى عماله على الكور والقبائل ألا يدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو رأى إلا انتخبوه. فأتته القبائل القريبة من مكة والمدينة، ووافى المثنى من كان قريبا منه<sup>(٩)</sup>.

(١) الطبرى ١/٤/٢١٨٠.

(٢) الطبرى ١/٤/٢١٥٩.

(٣) الطبرى ١/٤/٢١٨٣.

(٤) الطبرى ١/٤/٢١٨٨.

(٥) نفس المرجع.

(٦) الطبرى ١/٤/٢١٨٨، ٢١٨٩.

(٧) الطبرى ١/٤/٢١٩٠.

(٨) الطبرى ١/٤/٢٢١٠.

(٩) الطبرى ١/٤/٢٢١١.

ووقف المثنى فى جنده - بعد أن أجمع الفرس على يزجرد واستعدوا للثأر - يتوقع الثورة به، فكاتب عمر بذلك، فلما وصل إليه الكتاب قال: «والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب»، وخرج المثنى بجنده كأمر عمر، فتفرقوا فى تخوم العراق ونزلوا بذى قار، ولم يهمل القدر المثنى ليلقى سعدا، وإن وجد ابن أبى وقاص وصية تركها له.

وقد جاء سعد من هوازن التى كان على صدقاتها فى ألف فارس<sup>(١)</sup>، ويغلب على الظن أنهم كانوا من قيس عيلان، وعليهم بشر بن عبدالله الهلالي، وثلاثة آلاف من السراة واليمن، وكان أهل السراة سبعمائة، وكان أهل اليمن ألفين وثلاثمائة، منهم النخع ابن عمرو فى جمع من نسائهم وذرايهم يبلغ ألفا وسبعمائة، فصل نصفهم إلى الشام<sup>(٢)</sup>. وبينما سعد فى طريقه أمدته عمر بألفى يمانى، وألفى نجدى من غطفان وسائر قيس، وذلك قبل أن يصل إلى زرود<sup>(٣)</sup>، فصار جنده ثمانية آلاف إلا قليلا.

وكان جيش المثنى عشرين ألفا: ثمانية آلاف من ربيعة، منهم ستة آلاف من بكر بن وائل، وألفان من سائر ربيعة، وأربعة آلاف كثرتهم من حلفاء المثنى والذين بقوا معه بعد أن فصل خالد، وأربعة آلاف كانوا معه من كتيبة أبى عبيد، وألفان من بجيلة، وألفان من طيء<sup>(٤)</sup>.

وقبل أن يصل سعد إلى شراف لحق به الأشعث بن قيس وطليحة بن خويلد وعمرو بن معديكرب، كل على رأس قبيلته فى ألف وسبعمائة من أهل اليمن<sup>(٥)</sup>.

وكان عمر قد كتب إلى أبى عبيدة فى الشام بصرف أهل العراق كوصية أبى بكر، وهم ستة آلاف<sup>(٦)</sup>. وهكذا يتم الجيش قبل القادسية وفى أثنائها ستة وثلاثين ألفا أو نحوها.

وعندما استقر سعد وجنوده بعد الانتصارات الضخمة فى المدائن، وبعد أن جاء فتح جلولاء وحلوان قدمت الوفود على عمر، فأحس بتغيير أبدانهم وألوانهم، وعرف أن

(١) الطبرى ١/٤/٢٢١٦.

(٢) الطبرى ١/٤/٢٢١٩.

(٣) الطبرى ١/٤/٢٢٢١.

(٤) الطبرى ١/٤/٢٢٢١.

(٥) الطبرى ١/٤/٢٢٢٢.

(٦) الطبرى ١/٤/٢٢٢٧.

سبب هذا وخومة البلاد وعدم التلاؤم بينهم وبينها، وما يلقون فيها من الذباب والغبار والوخومة<sup>(١)</sup>، فأمر بارتياح الأرض، بحثا عن المواقع التي تتناسب مع العرب. فالعرب لا يصلحها من البلدان إلا ما أصلح البعير والشاة<sup>(٢)</sup>.

وظفر الرواد بموقع الكوفة، وتم تمصيرها في المحرم سنة ١٧هـ وفي نفس العام بنى المسلمون الأبنية في البصرة، التي كانوا قد نزلوها من قبل. وكتب سعد إلى عمر لما نزل الكوفة بأنه خير المسلمين بالمدائن، فمن أعجبه المقام تركه كالمسلحة، فبقى أقوام من الأفتاء أكثرهم بنو عيس<sup>(٣)</sup>، وإن كانوا قد انصرفوا بعد ذلك إلى الكوفة وغيرها<sup>(٤)</sup>.

وخططت الكوفة تخطيطا قائما على أساس من توزع القبائل، فتكونت مجموعات من الناس، يسميها المؤرخون بالأسباع، فصارت كنانة وحلفاؤها من الأحابيش وجديلة - وهم بنو عمرو بن قيس عيلان - سبعا، وصارت قضاة - ومنها يومئذ غسان بن شمام وبجيلة وخثعم وكندة وحضرموت والأزد - سبعا. ومذحج وحمير وهمدان وحلفاؤهم سبعا. وتميم وسائر الرباب وهوازن سبعا. وأسد وغطفان ومحارب والنمر وضبيعة وتغلب سبعا. وإياد وعك وعبد القيس وأهل حجر والحمراء سبعا<sup>(٥)</sup>.

وواضح أن هذه الأسباع تنقص سبعا، ويظن ماسينيون أنه كان خاصا بقبيلة بكر من شيبان<sup>(٦)</sup>، وما حدث بالبصرة شبيه بما حدث في الكوفة، وإن كان قد اتبع فيها نظام الأخماس. وكان لتميم الشأن الأول في تكوينها. وقد صارت خمسا، وفيها ضبة والرباب، بينما صارت عبد القيس خمسا، وبكر بن وائل خمسا، والأزد خمسا، وأهل العالية من قريش وكنانة وقيس عيلان والأنصار وطوائف من قبائل أخرى<sup>(٧)</sup>. ويرغم أن هذه الأسباع وتلك الأخماس قد تكونت على أساس القبائل فإنها قد شكلت خطوة جديدة في سبيل بناء مجتمع جديد، يستشعر إحساسا وجدانيا أكثر شمولاً من الإحساس بالقبيلة.

(١) الطبرى ١/٥/٢٤٨١.

(٢) الطبرى ١/٥/٢٤٨٤.

(٣) الطبرى ١/٥/٢٤٨٧.

(٤) الطبرى ١/٥/٢٤١٤.

(٥) الطبرى ١/٥/٢٤٩٥، البلاذرى ص ٢٧٦.

(٦) خطط الكوفة ترجمة المصعبى ص ١١ والطبرى ج ٥/٢٤٩٥.

(٧) الطبرى ١/٥/٢٣٧٧.

حقا إن الجيوش والإمدادات لم تكن تصنف حين انتدابها على أى أساس قبلى كما رأينا، وإن كان من الممكن تجمع أعداد هائلة من قبيلة واحدة فى جند واحد. والذى يلفت النظر أن إحساسا وجدانيا شاملا قد استحوذ على جميع المنازع القبلية وصهرها فى بوتقة الجهاد فى سبيل الله، وإن لم يستطع القضاء على هذه المنازع، وإنما حجبها لبعض الوقت فترات تقصر أو تطول، حتى كان تخطيط هذين المصرين على أساس القبائل، فإذا بأحاسيس جديدة تنشأ بحكم طبيعة الحياة فى المدينة، وبحكم علاقات الجوار والعطاء والخضوع لعوامل واحدة.

فكانت الكوفة والبصرة القاعدتين اللتين صدرت عنهما كل العمليات الحربية بعد استقرار المسلمين بهما. وكان أن استشعر المسلمون فيها شعورا مزدوجا بأنهم أفراد من قبائل، وأفراد فى مدينة معا. وأخذ الإحساس بالمدينة يلف المسلمين بهذا الرباط المدنى، ويطلع أهل كل مصر بطوابع خاصة، فهناك مغازى الكوفة، ومغازى البصرة، وأهل الكوفة، وأهل البصرة، وهناك خلافات على تعديل الفتوح فيما بينهم، وخصومات على الانصياع لقائد من مصر آخر. ويكفى لاستجلاء هذه الأحاسيس ما يروى عن أهل الكوفة من أنهم إذا قاتلوا أهل البصرة انحازت كل قبيلة ناحية، وقاتلت مثلتها فى الجانب الآخر، فَيَمُنُّ الكوفة يقاتلون يَمِنُّ البصرة، وربيعة الكوفة تقايل ربيعة البصرة، وهكذا<sup>(١)</sup>.

وقد تسنى للكوفة والبصرة أن يحققا انتصارات كبيرة فى فتوح الجناح الشرقى للعراق وفارس، وتحديد حدود الإمبراطورية الإسلامية فى هذا الميدان.

وجلى أن الفاتحين الذين حققوا هذا العمل الكبير كانت كثرتهم من عرب الشمال، الذين نعرف لهم شهرة عامة بالشعر، الشعر الثرى الذى لا يتيسر لأقرانهم الفاتحين من أبناء الجنوب، وقد أدى هذا إلى أن تنصرف كثرة شعر الفتح إلى تصوير أحداث الفتوح الشرقية، حتى لا يفادر منها شيئا، وحتى يكاد يكون سجلا تاريخيا لها، ووثيقة وجدانية لمشاعر الفاتحين.

ونحن حينما نستعرض تصوير شعر الفتح لأحداث الفتوح الشرقية، سيخيل إلينا أن كل الفاتحين كانوا شعراء دون استثناء، إذ أصبح الشعر حظا شائعا بينهم جميعا على تفاوت فى هذا الحظ.

(١) الطبرى ١/٥/٢٥٣٦.

## ٢- الشعر في العراق

انطلق الشعر على السنة الفاتحين في العراق مع أول ضربة سيف، وقد أحاط بالمعارك والأحداث إحاطة، بحيث يمكن أن يعد وثيقة تاريخية لها خطرهما. وهو من حيث تصويره لحياة المجاهدين ومشاعرهم، وتصويره لمشاعر المقاومين أيضا يمكن أن يعد وثيقة وجدانية رائعة لهذا الحدث الفذ في تاريخ الإسلام والمسلمين.

واكب الشعر أحداث الفتح منذ أول التقاء، كان في الحفير أو كاظمة بين خالد وهرمز، حيث دارت الدائرة على الفرس، ثم انتصر المسلمون على قارن بن قريانس في وقعة المذار أو الثني، وأكثروا القتل في جنده، فتغنى الققعاق بن عمرو التميمي بهذا النصر قائلا:

فنحن وطننا بالكواظم هرما

وبالثنى قرنى قارن بالجوارف<sup>(١)</sup>

وكذلك يفعل الأسود بن قطبة، فيعير عرب القبائل الذين انضموا للفرس بسبي المسلمين نساءهم واقتضاحهم فيقول:

لعمرو أبي بجير حيث صاروا

ومن آداهم يوم الثني

لقد لاقت سراتهم اقتضاحا

وفستنا بالنساء على المطي

آ ما للرجال فإن جهلا

بكم أن تفعلوا فعل الصبي<sup>(٢)</sup>

وعندما يجتمع العرب المتورون مع الفرس يوم أليس، ويرى المسلمون منهم نكالا - حتى يصلى خالد صلاة الخوف - يصور الأسود بن قطبة التميمي هول المعركة، وبسالة المقاومين فيقول:

لقينا يوم أليس وأمغي

ويوم المقر أساد النهار

فلم أر مثلها فضلات حرب

أشد على الجحاحجة الكبار

قتلتنا منهم سبعين ألفا

بقية حزبه نخب الإسار

سوى من ليس يحصى من قتيل

ومن قد غال جولان الغبار<sup>(٣)</sup>

(١) الطبري ٤٩/٤/١ . ٢٠٤٩

(٢) ياقوت ج ١ ص ٩٣٧ .

(٣) ياقوت ج ١ ، ص ٣٦٣ .

ويصور عاصم بن عمرو ثبات المقاومين من الفرس يوم العقيق فيقول:  
 ألم ترنا غداة المقر فينا      بأنهار وساكنها جهارا  
 قتلناهم بها ثم انكفأنا      إلى فم الفرات بما استجارا  
 لقينا من بنى الأحرار فيها      فوارس ما يريدون الفرارا<sup>(١)</sup>

وعندما وصل المسلمون إلى الحيرة ودخلوا قصورها استخفهم الطرب، فانطلقت  
 أغنيات النصر نشوى، تفخر ببلاتهم الذي استحقوا به الظفر، يقول الققعاق بن عمرو:  
 ويوم أحطنا بالقصور تتابعت      على الحيرة الروحاء إحدى المصارف  
 حططناهم منها وقد كان عرشهم      يميل به فعل الجبان المخالف  
 رمينا عليهم بالقبول وقد رأوا      غبوق المنايا حول تلك المحارف  
 صيحة قالوا: نحن قوم تنزلوا      إلى الريف من أرض العريب المقائف

والشاعر هنا يشير إلى ما كان من مجادلة خالد لأهل الحيرة، في نقتهم على بنى  
 عمومته من العرب، وما كان من انتسابهم إلى العرب. والشاعر يكشف هذا اللجاج  
 الذي فسروا به موقفهم، وأنهم لم يعترفوا بهذا النسب إلا تحت وطأة السيوف.

وهذا عاصم بن عمرو يصف بلوغ المسلمين الحيرة، وإحاطتهم بقصورها فيقول:  
 صبحنا الحيرة الروحاء خيلا      ورجلا فوق أثباج الركاب  
 حصرنا في نواحيها قصورا      مشرفة كأضراس الكلاب<sup>(٢)</sup>

ويمضى خالد بالمسلمين إلى الأنبار، وفي الطريق إليها يتأمل عاصم بن عمرو  
 جموع المسلمين التي حشدتها خالد ليأتى بهم من ألوا عليهم من أهل الأنبار فيقول:  
 جلبنا الخيل والإبل المهاري      إلى الأعراض أعراض السواد  
 ولم تر مثلنا كرما ومجدا      ولم تر مثلنا شخاب هاد  
 شحنا جانب اللطاط منا      بجمع لا يزول عن البعاد  
 لزمنا جانب اللطاط حتى      رأينا الزرع يقمع بالحصاد

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٠٤٧.

(٢) ياقوت ج ٢ ص ٢٧٥.

لنأتى معشرنا ألبوا علينا إلى الأنبار أنبار السواد<sup>(١)</sup>  
 وبعد أن ينقذ خالد عياضا، ويثار العرب من بكر بن وائل لمقتل عقة ولهزيمة عين  
 التمر، يوجه خالد أمراءه إلى الحصيد والخنافس والزميل ليبيتوا العرب على غرة، ويقتل  
 روزمهر قائد الفرس بيد القعقاع بن عمرو، الذى يفخر بقتله لحليلته فيقول:

ألا أبلغا أسماء أن حليلها قضى وطرا من روزمهر الأعاجم  
 غداة صبحنا فى حصيد جموعهم بهندية تفرى فراخ الجماجم<sup>(٢)</sup>  
 واستطاع أبو ليلى أن يهزم المهبودان فى الخنافس، فقال يفتخر بصنيعه:

وقالوا ما تريد فقلت: أرمى جموعا بالخنافس بالخيول  
 فدونكم الخيول فأجموها إلى قوم بأسفل ذى أثول  
 وفينا بالخنافس بأقيات لمهبودان فى جنح الأصيل<sup>(٣)</sup>  
 وصور الشعر هذا الحلف الغرب من الفرس والروم والعرب، الذين جمعت بينهم  
 الظروف على المسلمين فى وقعة الفراض، ونصر الله المسلمين وقطع دابر الحلف بأيديهم،  
 فقال القعقاع:

لقينا بالفراض جموع روم وفرس غمها طول السلام  
 أبدنا جمعهم لما التقينا ويبتنا بجمع بنى رزام  
 فما فتئت جنود السلم حتى رأينا القوم كالغنم السوام<sup>(٤)</sup>

وفى أول لقاء لجيش أبى عبيد مع الفرس فى النمارق يستحر القتال، ويستبسل  
 المسلمون حتى يتصرفوا على رستم، ويأسروا قائديه جابان ومردان شاه، فيستبيحوا السواد  
 يجوسون خلاله بعدما هاجروا نحو ربهم فأنالهم أكتاف الفرس، يقول عاصم بن عمرو:

(١) ياقوت ج ٤ ، ص ٩٣٣ .

(٢) ياقوت ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٣) ياقوت ج ٢ ص ٤٣٣ .

(٤) ياقوت ج ٣ ص ٨٩٤ .

لعمرى وما عمرى على بهين      لقد صبحت بالخزى أهل النمارق  
 بأيدى رجال هاجروا نحو ربهم      يجوسونهم ما بين درتا وبارق  
 قتلناهم ما بين مرج مسلح      وبين الهوافى من طريق البذارق<sup>(١)</sup>

ويفزع أهل السواد إلى أبى عبيد يطلبون الصلح، ويقدمون الهدايا والأطعمة  
 الفارسية وتمر الترسيان، بعد أن دانت للمسلمين قرى السواد، واستباحه المسلمون، يقول  
 عاصم بن عمرو:

ضربنا حماة الترسيان بكسك      غداة لقيناهم بببيض بواتر  
 وفزنا على الأيام والجرر لاقح      بجررد حسان أو بيرد غوابر  
 وظلت بلاد الترسيان وتمره      مباحا لمن بين الديار الأضافر  
 أبحنا حمى قوم وكان حماهم      حراما على من رامه بالعساكر<sup>(٢)</sup>

وفى قس الناطف تحدث كارثة الجسر، تلك الهزيمة الوحيدة التى لحقت بالمسلمين  
 فى جميع فتوحاتهم، إذ أخذتهم السيوف والغرق والفرار من كل جانب، وقد ترامت أنباء  
 الهزيمة فى بلاد العرب، ورن صدها فى كل قلب، يقول حسان بن ثابت لما بلغته الكارثة  
 بالمدينة:

لقد عظمت فينا الرزية إنا      جلاذ على ريب الخوادث والدهر  
 على الجسر قتلى لهف نفس عليهم      فيا حسرتا؟ ماذا لقينا من الجسر<sup>(٣)</sup>  
 وعلى الرغم من هذا فإننا لا نجد غير أبيات تنسب إلى أبى محجن الشقى فى  
 وصف المعركة، ورتاء نفر من شهداء المسلمين، وطبيعى أن تسكت أصوات الشعراء فى  
 هذه المحنة. يقول أبو محجن:

(١) ياقوت ، ج ٤ ص ٥٣٢ ، ٩٩٥ .

(٢) ياقوت ج ٤ ، ص ٧٧٤ .

(٣) ياقوت ، ج ٢ ص ٨٢ .

ومن دون مسراها فياف مجاهل  
 وغودر أفراس لهم ورواحل  
 وقد كان يغشاها الضعاف الأرامل  
 إلى جانب الأيات جود وناذل  
 لها أجل لم يأتها وهو عاجل  
 إهابى وجادات بالدماء الأباجل  
 لدى الفيل يدمى نحرها والشواكل  
 فقلت: ألا هل منكم اليوم قافل  
 رداى وما يدرون ما الله فاعل<sup>(١)</sup>

أنى تسدت نحونا أم يوسف  
 إلى فتية بالطف نيل سراتهم  
 وأضحى أبو جبر خلاء بيوته  
 وأضحى بنو عمرو لدى الجسر منهم  
 وما لمت نفسى فيهم غير أنها  
 وما رمت حتى مزقوا برماحهم  
 وحتى رأيت مهترى مزوثة  
 مررت على الأنصار وسط رحالهم  
 ألا لعن الله الذين يسرهم

وكانت الفيلة قد فعلت أفاعليها فى المسلمين فشتهم،

وكان أن أذن عمر لمن كان ارتد بالالتحاق بجند العراق ليظهروا، فإذا بهم يتدفقون إلى المثنى، وإذا بهم يخوضون تحت لوائه معركة الثأر والنصر، وقد شاع فى نفوسهم إحساس بالاستماتة، والتفانى للتكفير عما اقترفوه، كما استمات فل الجسر لمسح عار الهزيمة، وكانت معركة البويب معركة لم يشهد المسلمون والفرس أشد منها، حتى كانت العظام تلوح تلالا من هام الفرس وأوصالهم، وتحزر بمائة ألف من جيشهم<sup>(٢)</sup>. وتغنى الشعراء بهذا النصر، وعقدوا أكاليل الغار للمثنى. يقول الأعور العبدى الشني:

واستبدلت بعد عبدالقيس خفانا  
 إذ بالنخيلة قتلى جند مهرانا  
 فقتل الزحف من فرس وجيلانا  
 حتى أبادهم مثنى ووحدانا<sup>(٣)</sup>

هاجت لأعور دار الحى أحزانا  
 وقد أرانا بها والشبل مجتمع  
 أزمان سار المثنى بالخيلول لهم  
 سما لمهران والجيش الذى معه

(١) البلاذرى ص ٢٥١، الأغانى (سامى)، ج ٢١، ص ١٤١.

(٢) الطبرى ١٩٣/٤/١ - ٢١٩٩.

(٣) الطبرى ٢١٩٣/٤/١ - ٢١٩٩.

ووجد أبطال المسلمين فى قتلهم مهران شرفا تنازعه كثيرون منهم، وكثر فى ذلك جدالهم. وكان أشهر من تنازع قتله حسان بن المنذر بن ضرار الضبى، وجرير بن عبدالله البجلي، ويظهر أن حسانا قد طعنه، ثم ضربه جرير بعد ذلك، ولكن حسانا ينكر أن يكون جرير قد شاركه هذا الشرف فيقول:

ألم ترنى خالست مهران نفسه	بأسمر فيه كالخلال طير
فخر صريعا والتقانى برجله	وبادر فى رأس الهمام جرير
فقال قتيلى والحوادث جممة	وكأد جرير للسرور يطير
فقال أبو عمرو: وقتلى قتيلته	ومثللى قليل وللرجال كثير
فأرسل يمينا (أن رمحك ناله)	وأكرم إن تحلف وأنت أمير <sup>(١)</sup>

ثم تكون بعد ذلك المعركة الحاسمة فى القادسية، التى تجهز لها الفرس والعرب بكل ما يطيقون، وحشد لها عمر أهل الرأى والشجاعة والخطابة والنجدة، يحضون الناس ويلهبون مشاعرهم. والتقى سعد بجيش هو خلاصة الأمة الإسلامية مع الفرس فى ثلاثة أيام بثلاث ليال، متصلة الحرب حامية الوطيس، ولعب الشعر دوره فى المعركة، فلم يكن القتال يبدأ قبل أن يمر الشعراء بين الصفوف يرغبون الناس، ويقدمون عزمهم فينشب أهل النجدات القتال، بينما يشعل الرجز أوار الحماس، كما حدث فى أول يوم، فقد برز غالب بن عبدالله الأسدى يرتجز بدء القتال فقال:

قد علمت واردة المسالحي	ذات البيان واللسان الواضح
أنى سمام البطل المشايحي	وفارج الأمر المهم الفادح <sup>(٢)</sup>

فإذا به رمز أحد ملوك الباب يبرز فيأخذه غالب أسيرا، وخرج بعده عاصم ابن عمرو التميمي يرتجز قائلا:

(١) المسعودى، مروج الذهب، ج ٢ ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) المسعودى، مروج الذهب، ج ٢ ص ٢٠٤.

قد علمت بيضاء صفراء اللبب      مثل اللجين إذ تغشاه الذهب  
 أنى امرؤ لا من يعينه السبب      مثلى على مثلك يغيره العتب<sup>(١)</sup>

وظل القتال دائرا يغذيه الرجاز والشعراء بلهيب لا ينفد، حتى حال الليل بين  
 الفريقين، ولقد أبلى فى هذا اليوم عاصم بن عمرو بلاء رائعا، وهو يقول عن هذا اليوم  
 المسمى بأرماث:

حمينا يوم أرماث حمانا      ويعض الناس أولى بالجمال<sup>(٢)</sup>

يشير إلى ما كان من انتداب سعد لتميم لتدافع عن أسد، الذين أضرت بهم القبلة  
 ضررا بليغا. وفى صباح اليوم الثانى يوم أغواث، الذى أعاث فيه القعقاع المسلمين بجند  
 الشام استطاع المسلمون أن يوقعوا بالفرس فى غيبة القبلة التى قطع وضنها عاصم فى اليوم  
 الأول، ورفه هذا عن المسلمين، واستمر القتال إلى منتصف الليل، وكفة المسلمين أرجح،  
 وجدد مدد الشام أمل المسلمين، حينما رأوا القعقاع يصول فى صفوف الفرس، يقتل من  
 يلقاه، وكان سعد قد حبس أبا محجن الثقفى، فلما اشتد القتال وتردد تكبير الناس فى أذنه  
 ثارت حميته، واستعفى سلمى زوج سعد أن تحل قيده، وأن تعيره البلقاء فرس سعد،  
 وأقسم أن يرجع فيضع قدمه فى القيد، فرفض رجاءه فقال:

كفى حزنا أن ترتدى الخيل بالقنا      وأترك مشدودا على وثاقيا  
 إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت      مصاريع دونى قد تُصم المتاديا  
 وقد كنت ذا مال كثير وإخوة      فقد تركونى واحدا لا أخاليا  
 ولله عهد لا أخيس بعهدة      لئن فرجت ألا أزور الحوانيا<sup>(٣)</sup>

فلما سمعت سلمى شعره رقت له وأطلقتها، فاقتاد البلقاء، وركبها وعليه سلاحه،  
 وانطلق يقصف الأعداء بسيفه قصفا منكرا، وسعد يقول: لولا محبس أبى محجن لقلت  
 هذا أبو محجن، فلما انقضى اليوم رجع فوضع قدميه فى القيد، وظل القتال إلى الليل،

(١) مروج الذهب، ج ٢ ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٢) ياقوت ١، ص ٢١١.

(٣) الطبرى ١/٥/٢٣١٣.

والمسلمون أملون في الظفر، يفعلون في الفرس أفاعيلهم، حتى يقال: إن القعقاع قد  
زاحف الفرس ثلاثة وثلاثين رحفاً، فقتل في كل منها فارساً، وكان آخرها الذي قتل فيه  
يزرجمهر، وقال في قتله:

حبوته جيشاية بالنفس      هدارة مثل شعاع الشمس  
في يوم أغوات فليل الفرس      أنخس بالقبوم أشد النخس  
حتى تفيض معشرى ونفسي (١)

وفي الصباح الثالث لم يكن القعقاع قد غمض له جفن، فقد سرب جنده تحت  
جناح الليل إلى المكان الذي أقبلوا منه، وأمرهم أن يتقاطروا مائة مائة، فإذا بهم يفعلون،  
يتبعهم هاشم بن عتبة في بقية جند الشام، وأخذ يحمل على الأعداء فيهد صفوفهم،  
ولكن الفيلة عادت في هذا اليوم تفعل بالمسلمين كفعلها يوم أرمات وتشتت خيول  
المسلمين، حتى تمكن القعقاع والربيل من عيونها ومشافرها فولت تشب في النهر، واشتد  
القتال واستحر، وخيم الظلام، فلم يفصل بين الفريقين، ولم يكن يسمع غير صليل  
السيوف وهرير الفرسان. وزاحف القعقاع دون إذن سعد، وتبعته القبائل تحذو حذوه، فما  
جاء الظهر حتى أظهر الله المسلمين، فهدموا المجنبتين، وانفرج القلب فانقضوا عليه، وبلغ  
أهل النجدة سرادق كسرى وبه رسبم فقتله الله. وكان صوت القعقاع وهو يرتجز بشير  
الظفر:

نحن قتلنا معشرا وزائدا      أربعة وخمسة وواحدا  
نحسب تحت اللبد الأسودا      حتى إذا ماتوا دعوت جاهدا  
الله ربي واحترزت عامدا (٢)

كانت القادسية المعركة الفاصلة في الفتوح الشرقية، ولم ير المسلمون ولا الفرس وقعة  
أشد منها هولاً، فقد قُتد المسلمون ثمانية آلاف شهيد. وكان قُتلى الفرس ثلاثين ألفاً،  
وأبلى أبطال المسلمين فيها بلاء فخرها به، وسجلوه على الدهر في شعرهم. وكانت

(١) مروج الذهب، ج ٢ ص ٢٠٦.

(٢) الطبرى ١/٥/٢٣٣٣.

أرجازهم طبولا تدفع بالمسلمين إلى اقتحام الأهوال، وتدفع بهم إلى أن يكونوا نماذج رفيعة لبقية المجاهدين.

وهذا هو عمرو بن معديكرب الزبيدي يصيح طربا كأنه غلام مفتون وهو يرى صفوف الفرس تميل تحت وقع ضرباته:

أنا أبو ثور وسيفي ذو النون      أضربهم ضرب غلام مجنون  
يأل زبيد إنهم يموتون<sup>(١)</sup>

وقد تخلف عن القادسية كثرة شعر الفتح الشرقية إذ شهدا نفر من الشعراء المكثرين والمشهورين، وانطلق الشعر على السنة الفاتحين، وكأنما هو طقس حتمى من طقوس الحرب والاقتحام، وقد صورت جوانب المعركة تصويرا دقيقا، وصفت فيه الحوادث والشاعر، وفخر المجاهدون ببلاتهم، وأشادوا بما قدموا.

وطريف هذا التنازع الشعرى حول مقتل رستم، الذى اشترك فيه طائفة من كبار الفرسان الشعراء، وتنازعوا فيه دمه، من مثل عمرو بن معد يكرب الزبيدي، وقيس بن مكشوح، وعمرو بن شابس الأسدي، وزهير بن عبد شمس، وغيرهم من الفرسان أمثال طليحة بن خويلد، وقرط بن جراح العبدى، وضرار بن الأزور الأسدي، وهلال بن علفة التميمي:

يقول قيس بن مكشوح:

بكل مزجج كالليث سامى	جلبت الخيل من صنعاء تردي
إلى اليرموك فالبلد الشامى	إلى وادى القرى فديار كلب
مسومة دوابرها دوامى	وجئن القادسية بعد شهر
وأبناء المرازبة الكرام	فناهضنا هنالك جمع كسرى
قصدت لموقف الملك الهمام	فلما أن رأيت الخيل جالت
بسيف أفلّ ولا كهمام	فأضرب رأسه فهوى صريعا
وفعل الخير عند الله نامى <sup>(٢)</sup>	وقد أبلى الإله هناك خيرا

(١) الأغانى (سامى) ج ١٤، ص ٢٧.

(٢) البلاذرى ص ٢٥٩.

وهذا زهير بن عبد شمس ينسب هذا الشرف إلى نفسه فيقول :

أنا زهير وابن عبد شمس      أردت بالسيف عظيم الفرس  
رستم ذا النخوة والدمقس      أطعت ربي . . . وشفيت نفسي (١)  
وهذا عمرو بن شأس الأسدي يفخر بهذا الصنيع وينسبه إلى قبيلته، ويطلقه في  
عمومها :

جلبنا الخيل من أكتاف نيق      إلى كسرى فوافقها رعالا  
تركن لهم على الأقدام شجوا      وبالخقوين أياما طوالا  
وداعية بفارس قد تركنا      تبكى كلما رأت الهلالا  
قتلنا رستما وبنيه قسرا      تثير الخيل فوقهم الهبالا  
وفر الهرمزان ولم يحامي      وكان على قبيلته وبالا  
تركنا منهم حيث التقينا      قياما ما يريدون ارتحالا (٢)

وأيا كان من قتل رستم، فإنه يبدو أن المتنازعين جميعا قد اشتركوا في قتله أو ساعدوا عليه، وصور الشعر في هذه المعركة موقفا دقيقا كاد يودي بوحدة المجاهدين أمام أعدائهم، ذلك أن سعد بن أبي وقاص عاوده أول المعركة مرض كان يتردد عليه، جعله لا يستطيع أن يركب أو يجلس، فهو مكب على وجهه، وفي صدره وسادة يعتمد عليها، ويشرف على الناس من القصر، يرمى بالرقاع فيها أمره ونهييه، وقد نمت هذه الأنباء إلى الفرس فاستبشروا بها، ثم غى إليهم: أن المسلمين برموا بسعد وتندروا بمرضه، وأن قاتلا منهم يقول :

نقاتل حتى أنزل الله نصره      وسعد يباب القادسية معصم  
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة      ونسوة سعد ليس فيهن أيم (٣)

(١) البلاذري ص ٢٦٠ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٢٣٠١ .

(٣) الطبري ١/٥/١ / ٣٣٦١ .

وبلغ سعدا ما تنذر به الناس، وأن طائفة من وجوه القوم تتهمة وتشغب عليه، وترميه بالخور وضعف العزم، فحز ذلك في نفسه وأثار غضبه، فأمر بأن يحمل وأشرف على الناس حتى يروا ما به، ثم شتم من شغب، وهم بهم وقال: «أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم، والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم، ويشاغلهم وهم بإزائهم، إلا سنتت به سنة يؤخذ بها بعدي»<sup>(١)</sup>. وإزاء هذا الحزم أعلن الناس ولاءهم وطاعتهم. وقال جرير بن عبدالله البجلي: «إني بايعت رسول الله ﷺ على أن أسمع وأطيع لمن ولاه الله الأمر، وإن كان عبدا حبشيا». فمرت هذه الروح في نفوس الجند وسكنت بوادى الفتنة. ويذكر بعض الباحثين أن أبا محجن الثقفي كان فيمن حبسهم سعد في هذا اليوم بسبب تخرضهم<sup>(٢)</sup>. ويروى أن الشاعر المتخرص هو النعمان ابن قبيصة، وأن عبدالله بن سنان الأسدی جادله بطعنة أخرست صوته إلى الأبد، وذكر أنه لم يفعل هذا إلا حمية لقريش يقول:

لقد غادر الأقوام ليلة أدلجوا	بقصر العبادى ذا الفعال مجدلا
دلفت له تحت العجاج بطعنة	فأصبح منها فى النجيع مرملا
أقول له والرمح فى نخض كتفه	أبا عامر عنك اليمين تحللا
سقيت بها النعمان كأسا روية	وعاطيته بالرمح سما مثملا
تركت سباع الجو يعرقن حوله	وقد كان عنها لابن حية معزلا
كفيت قريشا إذ تغيب جمعها	وهدمت للنعمان عزا مؤثلا <sup>(٣)</sup>

ويبدو فى حديث جرير بن عبدالله البجلي - الذى يشبه الاعتذار - أنه كان ينفس على سعد إمارة الجيش، ولذلك قال قولته التى تلقفها المتخرصون، وفيها ينسب سعدا إلى الجبن:

(١) الطبرى ٣٣٦١/٥.

(٢) هيكل، الفاروق ج ١ ص ١٦٧.

(٣) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٥.

أنا جرير كئيتي أبو عمر      قد نصر الله وسعد في القصر<sup>(١)</sup>

وقد عرف سعد كيف يرد قالة جرير، عندما أشاد ببطولة أميرين من أمراء الجيش وببلائهما، هما القعقاع بن عمرو، وحمال بن جويه الكناني، وأظهر استهائته ببجيلة كلها فقال:

وما أرجو ببجيلة غير أني	أؤمل أجبرها يوم الحساب
وقد لقيت خيولهم خيولا	وقد وقع الفوارس في الضراب
فلولا جمع قعقاع بن عمرو	وحمال للجوا في الكذاب
هموا منعوا جموعكم بطعن	وضرب مثل تفتيق الإهاب
ولولا ذاك ألفيستم رعاء	تشل جموعكم مثل الذباب <sup>(٢)</sup>

وبرغم هذا الجو المضطرب الملتهب الذي سيطر على المعركة فإن فسحة من الوقت ضئيلة، ولحظات من خلو البال - في أوقات الراحة النادرة - كانت تتبدى للمجاهدين كالبريق الخاطف على أطراف الأسنة يختلسونها فيعالجون فيها أمورا خاصة تتعلق بحيواتهم الاجتماعية والشخصية. . . ومرة أن بعض المحاربين كانوا يحملوا بنسائهم، وأن أكثرهم استصحابا لنسائهم يوم القادسية كلنوا ببجيلة والنخع، فكان في النخع سبعمائة امرأة، وفي بجيلة ألف منهن، ولم تستطع أهوال الحرب أن توقف مصاهرة أحياء العرب لهاتين القبيلتين فاستوعبوهن؛ ولذا سميت النخع وبجيلة بأختان العرب أو بأصهارهم<sup>(٣)</sup>.

وكانت «أروى» ابنة عامر الهلالية النخعية قد تقدمت لخطبتها ثلاثة من المجاهدين، هم بكير بن عبدالله الليثي، وعتبة بن فرقد السلمي، وسماك بن خراشة الأنصاري، وكانت أختها تحت القعقاع بن عمرو، فاستشارته أيهم جدير بها؟ فكان جوابه شعرا يقول فيه:

فإن كنت حاولت الدراهم فإناكحي	سماكا أخ الأنصار أو ابن فرقد
وإن كنت حاولت الطعان فيممي	بكيرا إذا ما الخيل جالت عن الردي
وكلهم في ذروة المجد نازل	فشأنكم إن البيان عن الغد <sup>(٤)</sup>

(١) الطبرى ج ٥، ص ٢٣٦١.

(٢) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٦٢.

(٣) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٦٣ - ٢٣٦٤.

(٤) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٦٤.

وفتح المسلمون المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربى، وكان عليهم أن يعبروا النهر إلى المدائن القصى، بالشاطئ الشرقى، واستطاعوا بمعاونة بعض أهل البلاد أن يخوضوا مخاضة فى سرعة أذهلت أهل المدائن، ففوجئوا بالمسلمين دون أن يروا سفينا.

وكان للرجاز شأن كبير فى تشجيع المجاهدين على عبور دجلة، إذ وقف نفر منهم على الشاطئ الغربى يدفعونهم ويشرونهم ويذكرونهم بالجزاء والثواب، يقول مالك بن عامر بن هانئ وهو أول من عبر دجلة يومئذ:

امضوا فإن البحر بحر مأمور      والاول القاطع منكم ماجور

قد خاب كسرى وأبوه سابور      ما تصنعون والحديث مأثور<sup>(١)</sup>

وكان يزدجرد قد سبق المسلمين وفر إلى حلوان، وغنم المسلمون أمواله وخزائنه وجواهره، فكانت غنائمهم فى ذلك اليوم لا تحصى، مما أسال السنة الشعراء فى وصفها، يقول أبو بجيد - نافع بن الأسود -:

وأسلنا على المدائن خيلا      بحرها مثل برهن أرضا

فاتشلنا خزائن المرء كسرى      يوم ولوا وحاض منا جريضا<sup>(٢)</sup>

وطارد المسلمون فى هذا اليوم بغلا كان محملا بجواهر كسرى ومخصصاته من حلوى ودروع فألقوه إلى الماء، وأخرجه زهرة بن حويه وهو يرتجز قائلا:

فدا لقومى اليوم أحوالى وأعمامى      هم كرهوا بالنهر خذلانى وإسلامى

هم فلجوا بالبغل فى الخضام      بكل قطاع شئسون الهام

وصرعوا الفرس على الآكام      كأنهم نعم من الأنعام<sup>(٣)</sup>

وبعد فتح المدائن مصرت الكوفة والبصرة، وصارتا مركزين حربيين، أنيط بهما فتح الجناح الشرقى فى هذا الميدان، وصار لكل منهما جند خاص، وقد أشار إلى ذلك عبدة ابن الطيب فأسمها كوفة الجند فى قوله:

(١) أسد الغابة ، ج ٤ ص ٢٨٢.

(٢) الطبرى ، ج ٥ ص ٢٤٢٤.

(٣) الطبرى ، ج ٥ ص ٢٤٤٥.

إن التي وضعت بيتا مهاجرة بكوفة الجند قد غالت بها غول<sup>(١)</sup>

وكان من أول مجهودات هذين المعسكرين-إخضاع الجزيرة التي كانت بمثابة قاعدة حربية لحلفاء الروم من نصارى العرب، فنفس ذلك عن المجاهدين فى الشام، وقد أشار إلى هذا عياض بن غنم فقال:

من مبلغ الأقسام أن جموعنا حوت الجزيرة يوم ذات زحام  
إن الأعزة والأكارم معشر فضوا الجزيرة عن فراخ الهام  
جمعوا الجزيرة والغياث فنفسوا عمن بحمص غيابة القدم  
غلبوا الملوك على الجزيرة فانتهاوا عن غزو من يأوى بلاد الشام<sup>(٢)</sup>

ويفتح الجزيرة استتب للمسلمين أمر العراق.

### ٢- الشعر على طول الدروب إلى خراسان

وتتابعت فتوح أهل الكوفة وأهل البصرة والجيش الضارب الذى فتح العراق على طول الدروب إلى خراسان، ووصف الشعراء هذه المناطق البعيدة التى وطئوها لأول مرة، ورأواها تختلف فى جوها وطبيعتها ومظاهر حياتها اختلافاً بيناً عما عهدوا فى جزيرتهم، وفى مراحل الفتح الأولى فى العراق، فصوروا إعجابهم تارة وعجبهم تارة أخرى، وعبروا عن أحاسيسهم بالرضا أو السخط بهذه البلاد، وهذا نافع بن الأسود يصف إعجابه بريف الرى فيقول:

رضينا بريف الرى والرى بلدة لها زينة من عيشها المتواتر  
لها نشز فى كل آخر ليلة تذكر أعراس الملوك الأكاير<sup>(٣)</sup>

هذا بينما يشكو سراقه بن عمرو الذى وكل إليه أبو موسى الأشعري فتح الدريند حياته المضطربة هناك فيقول:

(١) قايوت ، ج ٤ ص ٣٢٢.

(٢) ياقوت ، ج ٢ ص ٧٤.

(٣) ياقوت ج ٢ ص ١٩٥.

ومن يك سائلاً عنى فإني  
بأرض لا يواتيها القرار  
بياب الترك ذى الأبواب دار  
لها فى كل ناحية مغار  
نذود جموعهم عما حوينا  
ونقتلهم إذا باح السرار<sup>(١)</sup>

وفى فتوح هذه المناطق البعيدة وجد شعر يحن فيه المجاهدون إلى وطنهم،  
ويتشوقون إلى أهليهم، ويذمون اغترابهم ووحشة هذه المناطق، يقول أحد المجاهدين فى  
الحنين إلى نجد:

أكرر طرفى نحو نجد وإننى  
برغمى وإن لم يدرك الطرف أنظر  
حينئذ إلى أرض كأن ترابها  
إذا أمطرت عود ومسك وعنبر  
بلاد كأن الأحقوان بروضة  
ونور الأقاحى وشى برد مخبر  
أحن إلى أرض الحجاز وحاجتى  
خيام بنجد دونها الطرف يقصر  
وما نظرى من نحو نجد بنافع  
أجل - لا - ولكنى إلى ذاك أنظر  
أفى كل يوم نظرة ثم عبرة  
لعينك مجرى مائها يتحدر  
متى يستريح القلب إما مجاوز  
بحرب وإما نازح يتذكر<sup>(٢)</sup>  
ويغلب على شعر الحنين هذا فى مجموعته حزن رقيق ولوعة رقيقة.

وفى الوقت الذى كان جند الكوفة والبصرة يفتحون فيه هذه المناطق كان سعد بن  
أبى وقاص بعد فراغه من المدائن يقضى على الفتن التى أثارها يزدجرد بإمداده للفرس  
من حلوان، واستطاع هاشم والقعقاع إحباط هذه الفتن، والقضاء على تجمعات الفرس فى  
جلولاء، ففر جند الفرس عن المدينة، ويصور أحد الرُجَّاز الذين شهدوا جلولاء ضراوة  
القتال فيها فيقول:

يارب مهر حسن مُطهم  
يحمل أثقال الغلام المسلم  
ينجو إلى الرحمن من جهنم  
يوم جلولاء ويوم رسيم

(١) ياقوت ، ج ١ ص ٤٣٧ .

(٢) ياقوت ، ج ٤ ص ٧٤٧ .

ويوم زحف الكوفة المقدم  
شين أصداغى فهن هرم  
ويوم لاقى ضيعة مهزم  
مثل ثغام البلد المحرم

وخر دين الكافرين للقم<sup>(١)</sup>

ثم طارد القعقاع فل جلولاء إلى حلوان فاحتلها، بعد أن فر يزدجرد إلى الري  
فقال القعقاع:

فنحن الأولى فزنا بحلوان بعدما  
أرنت على كسرى الإما والحلائل<sup>(٢)</sup>

وجه سعد بضرار بن الخطاب إلى ماسبذان شرقي حلوان، حيث كان آذين أحد  
عظماء الفرس قد جمع جموعا عظيمة من الفرس والعرب، وخرج بهم إلى السهل،  
فقتله ضرار واستولى على الناحية فقال:

ويوم حبسنا قوم آذين جنده  
وقطرته عند اختلاف العوامل

وزود وآذينا وفهدا وجمعهم  
غداة الوغى بالمرهفات الصراقل

فجاءوا إلينا بعد غب لقاتنا  
بماسبذان بعد تلك الزلازل<sup>(٣)</sup>

وأرسل سعد عمرو بن مالك إلى هيت وقرقيسيا، فاضطر أهلها إلى النزول على  
الجزية، ويبدو أنهم لم يقروا بها إلا بعد عناد وغدر، حتى ليذكر عمرو أنهم قتلوهم  
بعدها دانوا بالجزية فيقول:

ونحن جمعنا جمعهم فى حفيرهم  
وسرنا على عمد نريد مدينة  
فجثناهم فى دارهم بغتة ضحا  
فنادوا إلينا من بعبيد بأننا  
قتلنا ولم نردد عليهم جزاءهم  
بهيت ولم نحفل لأهل الحفاتر  
بقرقيسيا سير الكماة المساعر  
فطاروا وخلوا أهل تلك المحاجر  
نديين بدين الجزية المتواتر  
وحطناهم بعد الجزا بالبواتر<sup>(٤)</sup>

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٤٧٢.

(٢) ياقوت، ج ٢ ص ٣١٧.

(٣) ياقوت ج ٤ ص ٣٩٣.

(٤) ياقوت ج ٤ ص ٦٥.

وراح المجاهدون يتتبعون يزدجرد، الذى كان يمثل للفرس رمز بلادهم السلية فتجمع حوله الفلول، وتشور نائرة الفتنة من حين لآخر، وكان قد فر - من جلولاء إلى حلوان، ومنها إلى الرى، فمقرميسين، ثم إلى نهاوند - أمام جنود المسلمين حيث راح يحشد الحشود لآخر معركة تستهدف إنقاذ ما يمكن انقاذه حتى اجتمع فيها مائة وخمسون ألفا بقيادة الفيرزان<sup>(١)</sup>.

وكان اهتمام المسلمين بها عظيما أيضا، حتى لقد هم عمر بالخروج إليها بنفسه، وقد انتصر المسلمون فيها بفضل الخطة البارعة التى وضعها فرسان المسلمين، ونفذها القعقاع الذى يصور بلاء المسلمين فى قوله:

ونحن حبسنا فى نهاوند خيلنا      لشر ليال أتتجت للأعاجم  
ملأنا شعابا فى نهاوند منهم      رجالا وخيلا أضمرت بالضرائم  
وراكضهن الفيرزان على الصفا      فلم ينجه منها انفساح المخارم<sup>(٢)</sup>

انتهت مقاومة الفرس الرسمية بوقعة نهاوند، التى تعرف بفتح الفتوح، لأنه لم يكن بعدها حرب خطيرة، وشغل المسلمون بتعقب يزدجرد حتى يقضوا على الشغب الذى يثيره، وكان هذا العمل داخلا فى مهمة الأحنف بن قيس، الذى عقد له لواء خراسان. وكان عمر قد عقد لرؤساء الجند ليفتحوا بلدان الأطراف، فوجه عثمان بن أبى العاص إلى أصطخر وسار ابن زنيم إلى فساودراخرد، وسهيل بن عدى إلى كرمان، وعاصم بن عمرو إلى سجستان، والحكمم التغلبى إلى مكران. وكان يزدجرد قد فر من نهاوند إلى أصفهان، فتقدم جند الأحنف إليها، ففر إلى أصطخر، ولكنه لم يأمن إزاء ألوية المسلمين، التى كانت تستبرئ الأهواز وخوزستان، فغادر المنطقة بأسرها إلى المقاطعات العليا من طبرستان، يلبى دعوة جاءت من مرزيانها<sup>(٣)</sup>.

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٦٠٨.

(٢) ياقوت، ج ٤ ص ٨٣٨.

(٣) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١٢٦.

وتقدمت قوات الأحنف تساقط أمامها مدن خراسان، فاحتلت الطبسين وهرارة،  
ومرو ونيسابور وتطارد يزدجرد حتى تلجئه إلى الهرب إلى خاقان - ملك الترك في ما  
وراء النهر<sup>(١)</sup>.

وقد صور الشعر هذه الوثبات الجريئة لجند الأحنف في خراسان، فقال ربيع بن  
عامر أحد جنده البواسل:

ونحن وردنا من هرة مناها	رواء من المروين إن كنت جاهلا
ويلخ ونيسابور قد شقيت لنا	وطوس ومرو قد أزرن القنابلا
أنخنا عليها كورة بعد كورة	نفضهم حتى احتوينا المناهلا
فله عينا من رأى مثلنا معا	غداة أزرنا الخيل تركا وكابلا <sup>(٢)</sup>

وأيقن أمراء المقاطعات بانتهاه سلطان يزدجرد ففتحوا عنه . وبعد سلسلة التنقلات  
التي قام بها قتل في مرو، فسقطت أسرة آل ساسان، وصور أبو بجيد - أحد الفاتحين -  
هذه النهاية بقوله:

ونحن قتلنا يزدجرد ببعجة	من الرعب إذ ولي الفرار وغارا
غداة لقيناهم بمر تخالهم	ثمورا على تلك الجبال ونارا
قتلناهم في حربة طحنت بهم	غداة الرزيق إذ أراد جوارا
ضممنا عليهم جانبهم بصادق	من الطعن ما دام النهار نهارا
فوالله لولا الله لا شيء غيره	لغادت عليهم بالرزيق بوارا <sup>(٣)</sup>

وكان المسلمون قد بلغوا في تعقبهم ليزدجرد إلى حدود النهر، ولم يكن عمر  
يرى الانسحاق فيما وراءه، كما كان شأنه يوم أراد الاكتفاء بالعراق، وتمنى لو أن بين  
السواد والجبل سدا يفصل بين العرب والفرس، حتى أقنعه الأحنف بتأمين تخوم العراق  
والسواد<sup>(٤)</sup>.

(١) ياقوت ، ج ١ ص ٤٠٩ .

(٢) ياقوت ، ج ٢ ص ٤١١ .

(٣) ياقوت ، ج ٢ ص ٧٧٧ .

(٤) الطبري ، ج ٥ ص ٢٥٦١ .

وهم المجاهدون بعبور النهر، ولكن عمر لم ير رأيهم، فاكتفوا بالانسياح في  
سواحل كرمان، وتقدموا إلى مكران، ثم حاز الحكم التغلبي كرمان ذاتها ولم يتقدم،  
وقال في ذلك مشيرا إلى أوامر عمر:

غداة أدفع الأوباش دفعا      إلى السند العريضه والمداني  
فلولا ما نهى عنه أميري      قطعناه إلى البلد الزواني<sup>(١)</sup>

ويكاد يكون عهد عثمان بن عفان تأكيدا للفتح، وقضاء على الانتقاض، فلم  
يحدث في هذا الميدان لعهد غير فتح طبرستان، وغدا ذلك شغل أمراء الجند باستعادة  
أذربيجان ومناطق فارس وخراسان، التي قتل أهلها أميرهم عبید الله بن معمر، فسير  
إليهم الخليفة عبدالله بن عامر فاستردها، وقال أحد جنده أسيد بن المتشمس في ذلك:

ألا أبلغا عثمان عنى رسالة      لقد لقيت عنا خراسان ناطحا  
رميناهم بالخييل من كل جانب      فولوا صراعا واستعادوا النوابحا  
غداة رأوا الخيل العرب مغيرة      تقرب منهم أسدهن الكوالحا  
تنادوا إلينا واستجاروا بعهدنا      وعادوا كلابا في الديار نوابحا<sup>(٢)</sup>

وهكذا رافق الشعر موكب الفاتحين شرقا خطوة خطوة، وواكب المد المنطلق إلى  
غايته طوال الطريق، لم يغادر حادثة إلا سجلها، ولم يترك وقعة إلا صورها.

وهذا ما يجعل شعر الفتوح الشرقية سجلا هاما ووثيقة تاريخية، ومرجعا وجدانيا  
بالغ القيمة في الكشف عن عواطف الفاتحين وظروف حياتهم في الميدان، وما كان  
يضطرب في أعماقهم من مشاعر واحاسيس، صورها الشعر تصويرا واضحا شاملا.

(١) الطبري، ج ٥ ص ٢٧٠٨.

(٢) ياقوت، ج ٢ ص ٤١٢.

## الفصل الثالث

### الشعر فى فتوح الشام ومصر وأفريقية

#### ١- قلة الشعر على أسنة الفاتحين

فى اعتقادنا أن وقفة كتلك التى وقفناها من تصنيف الجيوش والإمدادات فى فتح العراق وفارس ضرورية هنا للكشف عن الأسباب الفاعلة التى أدت إلى قلة الشعر على أسنة الفاتحين فى الشام وفى مصر، وهى كقيلة فى نفس الوقت بالكشف عن طبيعة الاختلاف بين شعر الفتوح فى الميادين المختلفة، وقيمة الإنتاج الشعرى لهذه المناطق فيما بعد عصر الفتوح.

ونحن لا نجد هنا تلك الروايات الواضحة التى وجدنا فى العراق، فى تصنيف الجيوش والأمداد التى فتحتنا وانطلقت منه إلى فارس وخراسان، وفى الكيفية التى تشكلت بها هذه القوات. وحقا نحن نجد أنفسنا أمام فيض متدفق من الروايات والقيادات والأسماء، مثل: أبى عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص، وشرحبيل، ويزيد ابن أبى سفيان ومعاوية، والوليد بن عقبه وخالد بن سعيد، وعكرمة، وذى الكلاع وغيرهم، ولكننا نجد أيضا أن خلطا بينا قد حدث فى التأريخ لهذه الجيوش والأمداد وزمان انطلاقتها، والكيفية التى تم تشكيلها عليها، وقد تغاضى عنها المؤرخون لسبب أو لآخر.

وربما كان سبب الخلط الذى حدث فى هذه الجيوش وقادتها راجعا إلى كثرتها، وإلى الطريقة التى سار عليها الاستنفار والتجنيد، واختلافها فى موقف عن الآخر، ويرجع إهمال الفواصل الزمنية بينها إلى اختلاف القيادات، وتعيين بلدان الفتح قبل مسير القوات إلى الشام، ودوران المعارك كلها فى الشمال والجنوب فى وقت واحد، إلى جانب تعاون الميادين المختلفة فى تعاور الجيوش واستبدالها، وفتح بعض المناطق أكثر من مرة.

ولم يكن التغاضى عن تصنيف الجيوش فى روايات المؤرخين راجعا إلى ذوبان العصبية القبلية ذوبانا نهائيا ألغيت معه العصبية، وإنما يرجع ذلك إلى أن الفاتحين فى

هذا الميدان لم يختطوا لهم خطة، ولم يبتنوا محلة أو مدينة فيه كما فعلوا بالعراق، وكما فعلوا في مصر بعد ذلك، فلم يكتب لهم إقامة فيه، إذ تحولوا عنه إلى مصر.

وقد ساعد على اختلاط تصنيف الجيوش الفاتحة للشام أنها لم تجيش في كثرتها من المدينة، وإنما خرجت إلى الميدان من العراق، ومن أطراف شبه الجزيرة، حينما استنفر أبو بكر عماله ففصلوا بجند من عمالاتهم.

وبرغم هذا فإننا نستطيع بمعونة الروايات القليلة التي بين أيدينا أن نصنف جند الفتح الإسلامي للشام ومصر في صورة قريبة من الاصل أو دالة عليه.

كانت الخطوة الأولى في فتح الشام توجيه خالد بن سعيد بن العاص إلى تيماء، وكان أبو بكر قد عقد له في ألوية الردة، فنهاه عمر بن الخطاب عن تأميره، ومارال يحرضه على عزله، حتى جعله أبو بكر ردها بتيماء، على تخوم الشام لا يبرحها، وأن يدعو القبائل التي حلها للانضمام إليه إلا من ارتد، وألا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمره. ونفذ خالد أمر الخليفة، فاجتمعت إليه جموع كثيرة، جعلت عسكره عظيماً<sup>(١)</sup>، وهذه الجموع مبنية بطبيعة الحال، من القبائل الضاربة في تخوم الشام، كقضاة وكلب وجهينة وعذرة. وترامى إلى هرقل نبأ خالد، وترامى إلى خالد استعداد هرقل، فكتب إلى الخليفة يستفتيه، ويطلب الإذن بقتال الروم. وكان أبو بكر قد اطمأن إلى انتهاء فتنة الردة وبلوغ خالد بن الوليد إلى الحيرة ورأى أن جموع خالد بن سعيد لا تكفى لمنازلة الروم، فاستشار صحابته ثم عول على أن يستنفر أهل اليمن لفتح الشام. ولقيت دعوته إقبالاً شديداً خف على أثرها وجوه اليمن إلى خيلهم وسلاحهم، ونهضوا في قومهم، وساروا إلى المدينة، وكان منهم ذو الكلاع الحميري، وقيس بن هبيرة المرادي في مذحج، وجندب بن عمرو الدوسي في الأزد، وحابس بن سعد الطائي في طيء.

ورافق مقدمهم إلى المدينة كتاب خالد بن سعيد، وقدم عكرمة فيمن معه من تهامة وعمان والشحر والبحرين، فبعث بهم أبو بكر إلى خالد<sup>(٢)</sup>. وقبل أن تصل هذه الامداد إلى خالد بن سعيد ترامت إليه أنباء تأليب الروم لقبائل من بهراء وكلب وتنوخ

(١) الطبرى ، ج ٤ ص ٢٠٨١ .

(٢) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٨٣ .

ولحم وجذام وغسان، فكتب إلى أبي بكر كرة أخرى يطلب منازلهم، فأمره بنزالهم، وانتصر خالد على قبائل العرب، ودخل عامتهم في الإسلام<sup>(١)</sup>.

وعندما التقى خالد بالروم بقيادة باهان وانتصر عليهم، تقدم إلى القسطل، وهزم جيشا آخر للروم على الشاطئ الشرقي للبحر الميت، فتجمعت قوات الروم قبالة تيماء في أعداد ضخمة، فكتب إلى أبي بكر كتابه الثالث يستمده.

وكان أبو بكر بعد أن استقر أهل اليمن منهمكا في استنفار من حوله من المهاجرين والأنصار وأهل مكة وعماله، كعمرو بن العاص الذي كان على صدقات عمان، والوليد ابن عقبة وكان على صدقات قضاة، وكان أمر أبي بكر لهما أن يستخلفا ويندبا الناس مما يليهما لو اختاروا الجهاد فاستجاب إليهما خلق كثير<sup>(٢)</sup>. فأمر الخليفة عمرا على جيش فلسطين، والوليد على جيش الأردن<sup>(٣)</sup>.

وما لبث خالد بن سعيد حينما وافاه الوليد بن عقبة وعكرمة وذو الكلاع أن التحم بالروم في مرج الصفر، التي دحر فيها المسلمون، وانحاز عكرمة بالجند، وفر خالد<sup>(٤)</sup>.

وعندما بلغت الهزيمة أبا بكر كان شرحبيل قادما من العراق، فاستعمله الخليفة على عمل الوليد، على أن يفصل بجند خالد بن سعيد، ودعا أبو بكر بيزيد بن أبي سفيان فأمره على ألف من أهل مكة<sup>(٥)</sup>. وأردفه بأخيه معاوية، ليفصل ببقية جيش خالد ابن سعد<sup>(٦)</sup>.

ثم ندب الخليفة أبا عبيدة بن الجراح، وجعله على جيش عظيم فصل به إلى الشام، وأخذ أبو بكر يرغب الناس في الجهاد، فكانوا يأتون إلى المدينة حيث يوجههم إلى

(١) الطبرى ، ج ٤ ص ٢٠٨١ .

(٢) الطبرى ، ج ٤ ص ٢٠٨٣ .

(٣) الطبرى ، ج ٤ ص ٢٠٨٤ .

(٤) الطبرى ، ج ٤ ص ٢٠٨٤ ، ٢٠٨٥ .

(٥) الطبرى ، ج ٤ ص ٢٠٨٤ ، ابن خلدون .

(٦) المرجع نفسه .

الشام، فمنهم من يسير إلى أبى عبيدة، ومنهم من يسير مع يزيد... يسير كل إلى من أحب<sup>(١)</sup>.

وبعد هذه التعديلات: سمى أبو بكر كور الشام، لكل أمير كورته، فلا بى عبيدة حمص، وليزيد دمشق، ولشرحيل الأردن، ولعمرو بن العاص فلسطين<sup>(٢)</sup>.

وبينما تدور معركة فى بصرى - وجيوش المسلمين تتداعى إلى التساند - وصل خالد بن الوليد فى كتيبة العراق، التى تضم أصحاب رسول الله ﷺ الذين استأثر بهم دون المثنى<sup>(٣)</sup>، ويجتمع فى اليرموك - التى شهدتها كل الجنود الإسلامية - ستة وأربعون ألفا، هى كل جند الشام، وكثرتها الكثيرة من عرب اليمن. فجيوش خالد بن سعيد الذى تقسمه القواد: عكرمة وشرحيل ومعاوية - كان يمينا، وكذلك جيش الوليد وجيش عمرو ابن العاص<sup>(٤)</sup>، وأمداد عكرمة وذى الكلاع المكونة من الأزدي ومذحج وطيمى وغيرها من قبائل اليمن، وكثرة كتيبة خالد بن الوليد التى كان فيها ألف من الأنصار من أهل بدر. أما جند يزيد بن أبى سفيان فهو ألف من أهل مكة. بينما لا نعلم شيئا عن جند أبى عبيدة، وإن كان المظنون أنه من المهاجرين والأنصار.

وعلى الرغم من هذا فإننا لا نجد أثرا ولو ضئيلا لتكتل هذه العصبية فى شعر الفتح الإسلامى فى الشام، فبذور العصبية التى عانى منها المسلمون فيما بعد فى هذه البلاد، وسيطرت فيها على مقدرات الحياة إلى نهاية الدولة الإسلامية لا يوجد لها أثناء عملية الفتح ظل ولو شاحب يدل عليها، ففضلا عن انصهار هذه العصبيات فى بوتقة العمل الموحد فى سبيل الله والعقيدة الواحدة، وفضلا عن التضامن تحت شعار الوحدة وإنكار الذات والتفانى فى سبيل الهدف الأسمى، لم تكن هناك فرصة لظهور هذه العصبيات، إذ انعدم التوازن بينها، فالكثرة الكثيرة من أهل اليمن. وإذا كنا نعرف أن

(١) الطبرى، ج ٤ ص ٢١٠٨.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الطبرى، ج ٤ ص ٢٠٩١.

(٤) يذكر المؤرخون أن جيش عمرو لفتح مصر كان من محاربى الشام، ويذكر ياقوت ج ٣ ص ٨٩٣ أن كثرته كانت من عك، بينما يذكر ابن عبد الحكم أن جميعه من عك ص ٥١، أو أن ثلثه من غافق، وكذلك يذكر الكندى أيضا، الولاية ص ٨.

أهل اليمن ليسوا كأهل نجد والحجاز كلفا بالشعر ومعرفة به واستجابة له، فربما يفسر ذلك انعدام هذه الروح العصبية في الشعر، وسيزول عجبنا إذا ما عرفنا أن شعر الفتح الإسلامي في الشام ليس إلا ما خلفه جند خالد بن الوليد الذين رافقوه من العراق، وفيما عدا شعرهم لا نجد إلا قلة نادرة، إذا ما قورنت بشعر الفتح في العراق وفارس، وهذا يرجع إلى أنها كانت في جمهورها يمنية، ومعنى ذلك: أن القبائل اليمنية التي فتحت الشام جنت على الشعر في هذه المناطق، ووسمتها بالإجداب والضحالة، وجعلتها من بعد مهبطا للشعراء الوافدين.

وحدث نفس الأمر في فتح مصر، إذ يجمع المؤرخون على أن الجيش الذي فتح مصر بقيادة ابن العاص كانت كثرته من أهل اليمن، من عك وغافق<sup>(١)</sup>، فضلا عن دخلوها معه ممن أسلم من عرب الشام قبل اليرموك<sup>(٢)</sup>، وأولاد الأبناء اليمنيين الذين كانوا بصنعاء، ومسلمة الروم من بنى ينة، وبنى الأزرق، وبنى روييل، ممن عرفوا بالحمراء، وكانوا قد أسلموا قبل اليرموك<sup>(٣)</sup>. كما انضم إليه عرب سيناء من قضاة، وبعد أن فصل عن العريش لحق به قوم من بنى راشدة وقوم من لحم. وبهذا يشكل أهل اليمن نواة الجند الإسلامي في مصر، وتتابع الأمداد بعد ذلك. وإذا كان المؤرخون يختلفون حول هذه الأمداد وأعدادها فإنهم لا يذكرون شيئا عن كيفية تصنيفها<sup>(٤)</sup>.

وبرغم هذا فإننا لو رجعنا إلى تسمية القبائل في الخطط التي نزلتها لاتضح لنا أن كثرتها من عرب اليمن<sup>(٥)</sup>، ونعلم أن هذه القبائل لم تشترك جميعها في الفتح، وإنما وفدت كثرتها بعد أن استدعاها ذووها من الفاتحين. وتذكر بعض الروايات أن جموعا كبيرة من هذيل قد دخلت مصر مع أمداد عمر لعمر<sup>(٦)</sup>، وأنها نزلت في الحمراء الوسطى<sup>(٧)</sup>. وقد تميز دخول المسلمين إلى مصر بمثل ما تميز به دخولهم إلى العراق، من

(١) راجع ما سبق في الصحيفة السابقة.

(٢) الانتصار لابن دقماق ج ٤ ص ٥.

(٣) ابن عبد الحكم ص ١٢٩، المقرئ ج ١ ص ٢٩٨.

(٤) ابن عبد الحكم ص ٥٣.

(٥) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١، ٣٢.

(٦) الأغاني، ج ٢٠، ص ١٦٧، الإصابة ج ١ ص ١١٧.

(٧) المقرئ، ج ١ ص ٢٩٨.

تخطيط المدن وسكناها، ولم يرتض عمر أن يسكن عمرو وجنده الإسكندرية، حتى لا تتغير طباعهم العسكرية، وحتى لا يكون بينه وبينهم ماء، إذا أراد أن يركب راحلته حتى يقدم عليهم فعل، فتحول عمرو إلى الفسطاط<sup>(١)</sup>.

وقد ساعد اشتراك كثرة الجند في أصول يمنية واحدة على عدم تشقيق الخصومات، فشحب لون القبيلة، وبرزت نوازع جديدة، هي نوازع المدينة التي أفاءتها الحياة الجديدة في المدينة، إذ لم تستطع تحذيرات عمر ومحاربه لاتجاه الترف في البناء أن تحول دون تطورها، إلى أن تكون مدينة تامة لها ما للمدن من مرافق الحياة والعمران الذي عرف عن العرب من أهل الجنوب<sup>(٢)</sup>.

وقد ظل عرب اليمن غالبين على من سواهم في مصر زمنا طويلا، حتى إن عبدالعزيز بن مروان قال لأبيه حين ولاء مصر: «كيف المقام ببلد ليس فيه أحد من بني أمي؟»<sup>(٣)</sup>.

وكان نتيجة هذا أننا لا نكاد نجد صدى لأحداث الفتح الإسلامي لمصر في الشعر، بل لا نكاد نجد شعرا في الحقيقة، وكل ما هنالك أبيات قليلة لبعض الهذليين، لا نكاد تصور جانبا من جوانب الفتوح، ولا نكاد تكشف عن شيء من مشاعر الفاتحين، فبينما لم يفلح الشعر في الشام في إعطائنا صورة كاملة للفتوح كاد لا يوجد في مصر شعر يعطينا شيئا ولو يسيرا عن ظروف الفتح.

## ٢- الشعر في الشام

كان لكثرة القبائل اليمنية في جند الشام أثر كبير في قلة المحصول الشعري، الذي تخلف عن الفتوح الإسلامية هناك، فإن الشعر الذي بين أيدينا قليل جدا، حتى إنه ليقصر عن تصوير حوادث الفتح وسيرها وما دار فيها، ولا يفلح في إعطائنا صورة كاملة أو قريبة من الأصل للمحاربين في بلائهم ومشاعرهم وأحاسيسهم بالمعارك التي

(١) ابن عبد الحكم ص ٩١.

(٢) ابن عبد الحكم ص ٩٢.

(٣) الكندي، الولاية ص ٤٧.

خاضوها، وكل ما نجده أبيات قليلة يقولها المجاهد فى أعقاب المعركة، أو بيت أو بيتان يرتجزهما الراجز فى أثناء بروزه للقتال، وفى حملته على العدو، أو الفخر بنفسه، فى موقف معين، أو رثاء صديق، أو رثاء عضو من أعضائه .

ويدو أن قصر المدة التى استغرقها فتح الشام، وعدم انفساح المنطقة لتوغل المسلمين إلى مدى أوسع كانا من أسباب اختفاء شعر الحنين والتشوق، والشعر الذى يصور الشئون الخاصة بالجند، من أمثال ما رأينا فى شعر الميدان الشرقى . ومهما كان مدى الافتراق بين الميدانين فلنحاول التعرف على الكيفية التى استطاع بها المحاربون فى هذا الميدان تصوير حوادث الفتح وظروفه بالقدر الذى أتيح لهم أن يصوروها .

وقد تقدم أن أبا بكر احتاج للشام، فعقد لواء حربها لأربعة من مشاهير قواد المسلمين، وعين لكل منهم مهمته، فكانت مهمة أبى عبيدة فتح حمص والجابية، وكانت مهمة ابن العاص فتح فلسطين، بينما كانت وجهة يزيد بن أبى سفيان دمشق، ووجهة شرحبيل بن حسنة الأردن<sup>(١)</sup>، وبعد هذا تختلف الروايات فيما كان من أمر هذه الجيوش، وهل خاضت بعض المعارك وهى موزعة، أو ابتدأت معاركها مجتمعة؟ وفى الحقيقة أننا لا نجد فى كتب التاريخ ما يقنع بصحة ترتيب وقائع الفتح فى الفترة الأولى من فتح الشام إقناعا منطقيًا . فعدا معارك خالد بن سعيد، والوليد بن عقبة مع باهان، وقبائل العرب الضاربة فى تخوم الشام لا نسمع بشيء إلا بوصول كتيبة خالد بن الوليد، وما يقرره أحد المجاهدين فى كتيبته من تسلسل المعارك التى خاضها على نحو ما أشرنا إلى ذلك سابقا .

وكان خالد بن الوليد قد فوز من قراقر، إلى سوى، إلى أرك، وأتى تدمر، ثم القريتين، ثم أتى حوارين، وقصم، ظافرا حتى أغار على بنى غسان فى مرج راهط يوم فصحهم<sup>(٢)</sup>، ثم سار حتى نزل قناة بصرى، فتقابل مع جند أبى عبيدة وشرحبيل ويزيد وربطوا عليها، حتى صالحت بصرى على الجزية<sup>(٣)</sup> . وبعد اعتساف خالد الصحراء بهذه

(١) الطبرى ، ج ٤ ص ٢٠٩ .

(٢) مرج راهط هى بصرى اذكى شام الطبرى ، ج ٤ ص ٢١٠٨ .

(٣) الطبرى ، ج ٤ ص ٢١٢٥ .

الطريقة الفذة عملا معجزا في اختصار الطريق والتزود بالماء<sup>(١)</sup>، مما تغنى به الرجاز، من أمثال أبي أحبيحة القرشي، الذي قال في خالد:

له در خالد أنى اهتـذا  
والعين منه قد تغشاها للقلدى  
معصوية كأنها ملثت ثرى  
فهو يرى بقلبه ما لا يرى

قلب حفيظ وفؤاد قد وعى<sup>(٢)</sup>

وقال أحد الرجاز في نفس المعنى - متغنيا ببراعة دليله رافع الطائي - :

له در رافع أنى اهتـدى  
فوز من قراقر إلى سوى  
خمسا إذا ما سارها الجببس بكى  
ما سارها من قبله إنس يرى<sup>(٣)</sup>

واجتمعت جيوش المسلمين في اليرموك، واستطاع خالد في يوم إمارته أن يدور خلف جيش الروم فحصرهم، ثم شن هجوما عنيفا عليهم وعلى حلفائهم الغساسنة، فهانت معظمهم قتلى في النهر، وكان خالد قد قسم الجيش إلى كراديس، جعل عليها فرسان المسلمين كالقعقاع وعكرمة، واستفتح القعقاع يرتجز، وقد برز للنزال قائلا:

يا ليتنى ألقاك في الطراد  
قبل اعترام الجحفل للوراد

وأنت في حلبتك الوراد<sup>(٤)</sup>

وتبعه عكرمة قائلا:

قد علمت بهكنة الجواري  
أنى على مكرمة أحامي<sup>(٥)</sup>

وتظهر أهمية موقعة اليرموك في أنها فتحت الطريق إلى أجزاء الشام كلها، وقررت مصيرها، وتبدو هذه الأهمية في كثرة الشعر والرجز الذي صورها، فقد استنفدت كل الشعر الذي تركته لنا الفتوح في الشام تقريبا. وأكثر فيها الرجاز بصورة خاصة، فأشادوا

(١) الطبرى، ج ٤، ص ٢١٠٨.

(٢) الإصاىة ج ٧ ص ٤.

(٣) ياقوت، ج ٣ ص ١٧٢.

(٤) الطبرى، ج ٤ ص ٢٠٩٦.

(٥) الطبرى ج ٤ ص ٢٠٦٦.

ببلائهم، وبما قدموا فداء لعقيدتهم. فهذا حياض بن قيس القشيري يخاطب فرسه،  
وينشد رجليه التي قطعها الروم في اليرموك فيقول:

أقدم حذام إنها الأساور . ولا تغرنك رجل نادرة

أنا القشيري أخو المهاجرة أضرب بالسيف رءوس الكافرة<sup>(١)</sup>

ثم يشد على أعدائه فيقتل من الروم عددا كبيرا، حتى استحق أن يفخر ببلائه  
أحد بنى أبيه فقال:

ومنا ابن عتاب وناشد رجليه ومنا الذي أدى إلى الخي حاجبا<sup>(٢)</sup>

وهذا القعقاع بن عمرو - يفاخر ببلائه ونجدته يوم اليرموك، وإجابته الداعي في  
كل ملمة يقول:

يدعون قعقاعا لكل كريهة فيجيب قعقاع دعاء الهاتف<sup>(٣)</sup>

وبينما تكثر أبيات الرجز في هذه الواقعة لا تكاد القصائد أو المقطوعات يكون لها  
وجود، اللهم إلا مقطوعة واحدة قليلة عدد الأبيات للقعقاع بن عمرو، يصور فيها  
تهافت الروم في الواقصة، ويشيد بكتيبة خالد، التي أبلت في الشام بلاءها في  
العراق. . قال:

ألم ترنا على اليرموك فزنا كما فزنا بأيام العراق

قتلنا الروم حتى ما تساوى على اليرموك مفروق الوراق

فخضنا جمعهم لما استحالوا على الواقصة التبر الرقاق

غداة تهافتوا فيها فصاروا إلى أم تعضّل بالذواق<sup>(٤)</sup>

(١) الإصابة ، ج ٢ ص ٦٨ وقد توهم الشاعر فدعى الروم أساروه .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) الإصابة ج ٥ ص ٢٤٤ .

(٤) ياقوت، ج ٤ ص ٨٩٣ .

ويتجه المسلمون إلى فحل فيحاصرونها، ويتركون جندا لمناوشة الروم، بينما تتجه كثرة الجيش إلى دمشق، وقد فتحها الله عليهم بعد اشتباك مع الروم في مرج الصفر وحصار طويل للمدينة، فتحت أبوابها للمسلمين صلحا من جانب، وحربا من جانب آخر. وكان عبدالرحمن بن أبي سرح - أحد جند يزيد بن أبي سفيان - يتوقع تسليم المدينة والجند رابضون على أبوابها، فقال يصف انتظار الجند بباب توماء مع ابن أبي سفيان - :

ألا أبلغ أبا سفيان عنا بأننا      على أحسن حال كان جيش يكونها  
وأنا على باب لتوماء نرتمي      وقد حان من باب لتوماء حينها<sup>(١)</sup>

وبعد أن فتحت دمشق عاد المسلمون إلى فحل، حيث التقوا بثمانين ألفا من الروم وانتصروا عليهم انتصارا مبيئا، صورته القعقاع بن عمرو في قوله :

وغداة فحل قد رأوني معلما      والخيل تحط والبلا أطوار  
ما زالت الخيل العرب تدوسهم      في حوم فحل والهبأ موار  
حتى رمين سراتهم عن أسرهم      في روعة ما بعدها استمرار<sup>(٢)</sup>

ووصف علقمة بن الأثر العبي تكيل المسلمين بالروم فقال :

ونحن قفلنا كل واف بأله      من الروم معروف النجاد منطلق  
ونحن طلقنا بالرماح نساءهم      وأبنا إلى أزواجنا لم تطلق  
وكم من قتيل أرهقته سيوفنا      كفاحا وكف قد أطيحت وأسوق<sup>(٣)</sup>

وجه أبو عبيدة بعد فحل جنود العراق، وعليهم هاشم بن عتبة والقعقاع بن عمرو كأمر أبي بكر كما وجه بالأعور السلمي إلى طبرية فحاصرها حتى فتحها الله عليه، وفي ذلك يقول الربيع بن مطرف بن بلخ التميمي أحد جنود الأعور:

(١) ياقوت ، ج ١ ص ٤٤٣ .

(٢) ياقوت ، ج ٣ ص ٨٥٣ .

(٣) الإصابة ، ج ٥ ص ١١١ .

وإنا لخاللون بالشغفر نحتوي      ولستا كمن هر الحروب من الرعب  
منعناهم ماء البحيرة بعد ما      سما جمعهم فاستهلوه من الرهب<sup>(١)</sup>

واتجه أبو عبيدة بعد ذلك مع خالد بن الوليد إلى الشمال، حيث التقوا بجيشين للروم، عليهما توذر البطريق وشنس، وحال الليل بين المسلمين والروم، وبيت الفريقان في انتظار الصباح، وعند الفجر نظر خالد فلم ير توذر ولا جنده، فأيقن أنه يريد دمشق، فطار في أثره، وكان يزيد بن أبي سفيان قد علم بمقدمه فخرج إليه أمام دمشق، وجاءه خالد من خلفه، فحصر بين المسلمين حتى قضوا عليه وعلى جنده.

وعاد خالد ليجد أبا عبيدة قد قضى هو الآخر على شنس، وفي ذلك تروى أبيات من الرجز تصور صنع المسلمين بتوذر وشنس، وتنسب إلى خالد بن الوليد تقول:

نحن قتلنا توذرا وشوذرا      وقبله ما قد قتلنا حيدرا

نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا<sup>(٢)</sup>

وانطلق المسلمون بقيادة أبي عبيدة شمالي الشام فحاصروا حمص شتاء كاملا، ظن الروم أن البرد سيهلكهم فيه، لكنهم تراجعوا إلى الصلح، وتوالت الفتوح، ودخل المسلمون قنشرين وحلب وأنطاكية حصن المسيحية الحصين ودانت لهم الجزيرة، وصالحت الرها ونصيبين وأرمينية<sup>(٣)</sup>.

وعجيب ألا يكون لهذه الفتوح صدى في الشعر برغم تعددها، وطول المدة التي استغرقتها وبرغم الفرص المتاحة في الحصار وفراغ الجند، وربما يرجع السبب في ذلك إلى أن معظم هذه البلاد قد فتح صلحا.

وتقدم المسلمون في جنوب الشام ففتحوا أجنادين بعد معركة عنيفة، قتل فيها ثمانون ألفا من الروم، وفر الأرطوبون قائدهم إلى بيت المقدس، وصور زياد بن حنظلة فراره فقال:

(١) الإصابة، ج ٢، ص ٢١٩.

(٢) الطبرى، ج ٥، ص ٢٣٩٠.

(٣) الطبرى، ج ٥، ص ٢٠٥٧.

ونحن تركنا أرطبون مطردا  
عشية أجنادين لما تتابعوا  
عطفنا له تحت العجاج بطعنة  
فطمنا به الروم العريضة بعده  
تولت جميع الروم تتبع إثره  
وغودر صرعى فى المكر كثيرة  
إلى المسجد الأقصى وفيه حصور  
وقامت عليهم بالعرء نور  
لها نشج نائى الشهيق غزير  
عن الشام أدنى ما هناك شطير  
تكاد من الذعر الشديد تطير  
وعاد إليه القلّ وهو حسير<sup>(١)</sup>

وعجيب أيضا أن يخلو شعر الفتح من تصوير غبطة المسلمين التى لا حدود لها بتسليم بيت المقدس، وما لذلك التسليم من معان ودلالات بالغة القيمة فى انتصار الإسلام وسيطرته على معقل المسيحية ومهبطها، ولما لقيه المسلمون فى حصارها من صنوف القسوة واستماتة الروم وعصف المجانيق، وكل ما نجده آيات قليلة، تصور مبارزة حدثت بين أرطبون وأحد جند المسلمين يدعى عبدالله بن سيرة، فبينما عبدالله يقتله قطع أرطبون أصابع يده بضربة من سيفه، فقال عبدالله:

فإن يكن أرطبون الروم أفسدها  
فإن فيها بحمد الله متفعا  
بنانتان وجرموز أقيم به  
صدر القناة إذا ما آتسوا فزعا  
وإن يكن أرطبون الروم قطعها  
فقد تركت بها أوصاله قطعاً<sup>(٢)</sup>

وسقطت الشام العريضة فى أيدى المسلمين، وألقت إليهم بخيرات أرضها، ويعيش خصيب لا يعد مآكله، كما عبر عن ذلك زياد بن حنظلة حيث قال يتذكر فتح الشام فى عام الرمادة على ما يبدو:

تذكرت حرب الروم لما تناولت  
وإذ نحن فى أرض الحجاز وبيننا  
وإذ نحن فى عام كثير نرائله  
مسيرة شهر بينهن بلابله

(١) ياقوت، ج ١ ص ١٢٦.

(٢) الطبرى، ج ٥ ص ٢٤٩٠، وانظر الإصابة ج ٥ ص ٦٠، ص ٩٢.

وإذ أرتبطون الروم يحمى بلاده  
فلما رأى الفاروق أزمان فتحها  
فلما أحسوه وخافوا صواله  
وألقت إليه الشام أفلاذ بطنها  
أباح لنا ما بين شرق ومغرب  
وكم مثقل لم يضطلع باحتماله  
يحاوره قرم هناك يساجله  
سما بجنود الله كيما يصاوله  
أتوه وقالوا: أنت ممن نواصله  
وعيشا خصيبا ما تعد مآكله  
مواريث أعقاب بتتها قرامله  
تحمل عبثا حين شالت شوائله<sup>(١)</sup>

ولكن الروم لم يأسوا، فاستمالوا القبائل العربية في شمالي الشام، وأبحرت حملة بقيادة قسطنطين بن هرقل، فألقت مرساها على شاطئ أنطاكية واستولت عليها، وانضمت إليها القبائل المتمردة<sup>(٢)</sup>. وثار الشمال على أبي عبيدة الذي ألقى نفسه محصورا في حمص، فراسل الخليفة يستمده، وأزمع عمر أن يسير بنفسه إلى الشام أول الأمر، ثم ما لبث أن عدل تحت إلحاح صحابته من أولى الرأي، فسير الأمداد إلى أبي عبيدة، وأفلح المسلمون في عزل القبائل العربية عن الروم، حيث طوقها عبدالله بن عبدالله بن عتبان، فقفلت إلى مضاربها مؤثرة السلامة<sup>(٣)</sup>، حيث صالحت على ما كان من صلحها قبل ذلك، فقال عبدالله يخاطب أحد زعمائهم ويؤمنه في نصيين:

ألا من مبلغ عنى بجيرا  
فإن تقبل تلاقى العدل فينا  
وإن تدبر فما لك من نصيب  
وقد ألت نصيبين إلينا  
لقد لقيت نصيبين الدواهي  
فما بينى وبينك من تعادي  
فأنسى ما لقيت من الجهاد  
نصيبين فيلحق بالعباد  
سواد البطن بالخرج الشداد  
بدهم الخيل والجرود الرواد<sup>(٤)</sup>

(١) الطبرى ، ج ٥ ص ٢٤١٠ .

(٢) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٥٢ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٤) ياقوت ، ج ٤ ص ٧٨٨ ، ٧٨٩ .

وكسر المسلمون خطوط المقاومة الرومية بعد عزل القبائل عنها، فانسحبت الحملة بالهزيمة، وسجل الشعر احتياج عمر لأنباء الثورة فى شمالى الشام، وإزماعه السفر إليها فقال زياد بن حنظله:

سما عمر لما أتته رسائل كأصيد يحمى صرمة الحى أغيدا  
وقد عضلت بالشام أرض بأهلها تريد من الأقوام من كان أنجدا  
فلما أتاه ما أتاه أجابهم بجيش ترى منه الشبائك سجدا  
وأقبلت الشام العريضة بالذي أراد أبو حنفس وأزكى وأزيدا  
فقسط فيما بينهم كل جزية وكل رفاذ كان أهنا وأحمدا<sup>(١)</sup>

وسجل الشعر أيضا ذلك الحدث الجلل الذى ألم بأرض الشام وعاصر ضنك المسلمين فى الحجاز، وهو طاعون عمواس المروع، الذى أهلك كثرة من المسلمين تبلغ خمسة وعشرين ألفا، ووقف بعمر فى الطريق عند سرع، بالقرب من تبوك، فرجع نزولا على رأى الجماعة، وأعقب رجوعه اشتداد الطاعون وفتكه، فهلك جماعة من قادة المسلمين ووجوههم، كأبى عبيدة ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبى سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وغيرهم، ويروى شعر طريف فى تصوير هذا البلاء وفعله فى المسلمين، وإخلادهم إلى الإيمان بالقدر والجبر، كما عبر عن ذلك أحد المسلمين عندما رأى غلاما هاربا على حمار فقال:

لن يعجزوا الله على حمار ولا على ذى غرة مطار

قد يصبح الموت أمام السارى<sup>(٢)</sup>

وشكا بعض المسلمين من اجتماع الطاعون والظعن، كقول عبدالله بن سبرة:

إن أقبل الظعن فالطاعون يرصدني كيف التقاء على ظعن وطاعون<sup>(٣)</sup>

(١) الطبرى ، ج ٥ ص ٢٤١١ .

(٢) الطبرى ، ج ٥ ص ٢٥٢١ .

(٣) الإصابة ، ج ٥ ص ٦٠ .

وكذلك سجل الشعر بعض الحوادث العامة فى تاريخ الفتح الإسلامى، كأمر ابن الخطاب بطبخ الأنبذة حتى يذهب ثلثاها، حينما بلغه وقوع بعض الجند فى الخمر. وقد روى بعض المؤرخين ارتباط ذلك بما ابتلى به المسلمون من الطاعون، فقال ذو الكلاع فى رثاء الخمر:

ألم تر أن الدهر يعثر بالفتى      وليس على صرف المتون بقادر  
صبرت ولم أجزع وقد مات إخوتى      ولست على الصهباء يوما بصابر  
رماها أمير المؤمنين بحتفها      فخلانها يكون حول المعاصر<sup>(١)</sup>

وهكذا يعطينا الشعر فى الشام صورة باهتة وناقصة لحوادث الفتح ولمشاعر الفاتحين، ولكنها تبدو أكثر إشراقا أمام الصورة التى يعطيها لنا الشعر فى فتوح مصر وأفريقيا.

## ٢- الشعر فى مصر وأفريقية

كنا قد التمسنا العذر لميدان الشام فى قلة المحصول الشعرى للفتوح، لأن الفاتحين لم يتخذوا بها مساكن ولم يختطوا فيها خططاً، وبأن آماذ الفتح وأبعاده لم تيسر لهم الانطلاقة الطويلة التى يسرها امتداد الفتح فى آماذ الأرض المنفسحة فى خراسان.

فما العذر الذى يمكن أن نتدرج به أمام ندرة المحصول الشعرى للفتوح فى مصر، وقد اختط العرب خططاً، وأقاموا بها يحاريون الروم، ويقضون على فتنهم وبعدهم قرابة ثمانى سنوات، بينما كانت آماذ الفتح ليست ذات حدود فى الانطلاق عبر أفريقيا والسودان انطلاقة واسعة؟

إن القبائل التى شكلت جند الشام وأمداده هى نفس القبائل التى فتحت مصر واستقرت فيها من بعد الفتح، وإذا كنا لاحظنا أن قوات من العرب التزارين قد حاربت فى الشام فترة تحت إمرة خالد بن الوليد ويزيد بن أبى سفيان فتركت آثارا لها فى شعر الفتوح هى تقريبا كل ما لدينا من هذا الشعر فإننا نلاحظ هنا: هجرة قبائل معينة، اشتهرت بالشعر، وأقامت بمصر إقامة دائمة، وأشهر هذه القبائل: قبيلة هذيل، وبرغم

(١) الإصابة، ج ٢ ص ١٨٣.

هذا - فليست لها آثار تدل على اشتراكها في الفتوح اشتراكا واضحا، وقد هاجرت هذه القبيلة إلى مصر في أعداد كبيرة، جعلت بعض المؤرخين المتقدمين يعتقدون أنه لم يعد لها في الحجاز حتى يطرق<sup>(١)</sup>. وظهرت آثار هذه الهجرات الضخمة فوصفوا إقفار ديارهم، وخلوها بعد هجرة ذويهم، كما نجد في شعر البريق بن عياض وأبي صخر والحارث بن أسامة<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من أن هذه الأشعار وجدت بسبب من الفتوح إلا أنها لا تدل بطبيعة الحال على حوادثها ولا تتعرض لها على الإطلاق.

وهناك قصيدة تروى لأبي العيال الهذلي أحد الذين اشتركوا في الفتوح بمصر والشام يتحدث فيها عن الحرب والحصار، ويوجهها إلى معاوية بن أبي سفيان، وعمرو ابن العاص، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح على صورة رسالة. ويذكر أنها كانت على زمن معاوية. ولكننا نعجب لذكر والى مصر في عهد عمر وعثمان في هذه القصيدة التي تسير على هذا النحو:

من أبي العيال أبي هذيل فاعرفوا	قولى ولا تتجمعوا ما أرسل
أبلغ معاوية بن صخر آية	يهوى إليه بها البريد المعجل
والمرء عمرا فأته بصحيفة	منى يلوح بها الكتاب المنمل
والى ابن سعد إن أؤخره فقد	أزرى بنا فى قسمة إذ يعدل
والى أولى الأحلام حيث لقيتهم	حيث البقية والكتاب المنزل
أنا لقينا بعدكم بديارنا	من جانب الأمراج يوما يسأل
أمرنا تضيق به الصدور ودونه	مهج النفوس وليس عنه معدل
فى كل معركة يرى منافى	يهوى كعسزلاء المزايدة يزغل
أو سيد كهل تمور دماؤه	أو جانح فى صدر رمح يسعل

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٣١٩ .

(٢) انظر ديوان الهذليين ، ج ٢ ص ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ج ٣ ص ٥٨ .

حتى إذا رجب تخلى وانقضى  
شعبان قدرنا لوفى رحيلهم  
وتجردت حرب يكون حلابها  
فاستقبلوا طرف الصعيد إقامة  
فترى النبال تعير فى أقطارنا  
وترى الرماح كسأتما هي بيننا  
وجماديان وجاء شهر مقبل  
سبعاً يعد لها الوفاء فتكمل  
علقا ويمر بها الغوى المبطل  
طورا وطورا رحلة فـتـنـقل  
شمسا كأن نصالهن السنبل  
أشطان بثر يوغلون ونوغل<sup>(١)</sup>

وفى رأينا أن القصيدة كانت فى محاولة الروم استعادة مصر للمرة الثانية، بحملة مانويل الداخلة فى مشروع قسطنز، لاستعادة الإمبراطورية الرومية. لمصر والشام. وهذه الحملة كانت فى عام ٢٥هـ، فى الوقت الذى كان فيه معاوية بن أبى سفيان واليا للشام، ويعمل بكل قواه لرد طرف الحملة الثانى عن الشام، إذ كانت حملة مزدوجة ذات شعبتين. وليست هناك حوادث تاريخية جمعت بين هؤلاء الذين يتوجه إليهم الشاعر برسالته إلا هذه الحادثة، فمعاوية أمير الشام يقضى على حملة مانويل فى الشام، وتمنى أمامه بهزيمة فادحة. وعبدالله بن سعد هو أمير مصر، وعمرو بن العاص فاتحها، وأميرها السابق الذى تصدى لهذه الحملة بعد أن أتى به الخليفة وكلفه بها. وقد توغلت حملة مانويل داخل الأراضى المصرية، وكان عددها كبيرا، إذ قدمت فى ثلاثمائة سفينة<sup>(٢)</sup>، وتقدمت من الإسكندرية التى استسلمت مباشرة إلى حصن بابليون، ووقفت على أطراف الصعيد كما يقول أبو العيال ونهد عمرو إليها فى نقيوس، حيث أذاقها الهزيمة، فعادت تتحصن بالإسكندرية وتنصب المجانيق على أسوارها، فسواها عمرو بالتراب. ودخل المدينة فى الوقت الذى انتهى منه معاوية من القضاء على شق الحملة فى الشام.

والقصيدة فى جملتها ليست إلا استصراخا للأمرء المعنيين بأمر الدفاع عن مصر والشام لرد العدوان الذى تعرضت له، وإجلاء المعتدين الذين أقاموا بالبلاد ما يقرب من أربعة أشهر.

(١) وقد لاحظ بعض الدارسين أن القصيدة ليست كاملة، وأن تسلسل الفكرة فيها منعدم. (مصر العرية)

(ص ٩٢)، وانظر القصيدة فى ديوان الهذليين ج ٢ ص ٢٥٢، والإصابة ج ٧ ص ١٤٣.

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٥٧.

وتجمع الروايات التاريخية على أن أبا ذؤيب الهذلي قد خرج إلى مصر يريد الغزو في إفريقية مع جيش عبدالله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٦هـ<sup>(١)</sup>، ولكنها تختلف في أمر بنيه الخمسة، الذين ذكر أنهم لاقوا حتفهم في مصر أو في غيرها، ولكن بعض الروايات تؤكد أنهم هلكوا بالطاعون في مصر<sup>(٢)</sup>. وقد رثاهم أبو ذؤيب بقصيدة من عيون الشعر العربي<sup>(٣)</sup>، ستعرض لها فيما بعد.

وقد رأى بعض الدارسين: أن أبا ذؤيب قد يكون قال بمصر قصيدته التي يذكر فيها بلاء عبدالله بن الزبير في فتح أفريقية<sup>(٤)</sup>، وهذا شيء لا تدل عليه القصيدة ولكنها تدل في وضوح على ظروفها ومناسبتها وتؤيدها الروايات التاريخية التي عرضت لفتح أفريقية كما سنرى.

وهكذا يشعر الدارس لشعر الفتح الإسلامي في مصر بالأسف ولا يملك إلا أن يتعلل بما يتعلل به غيره من الدارسين، من ضياع شعر القبائل التي نزلت مصر، إذ لا يمكننا أن نتصور أن تحدث هذه الفتوح الخطيرة في مصر، وأن تقع الوقائع العنيفة هذه في بابلون، وأم دنين، وعين شمس، والكربون والإسكندرية ولا يكون لها أثر في الشعر، بل من العجيب حقا أن يقتل المسلمون مع الروم في الكربون بضعة عشر يوما متصلة - حتى يصلى عمرو صلاة الخوف - ولا نجد لذلك أثرا إلا في إشارة لكثير فيما بعد الفتح بسنوات عديدة حينما قال:

ومرت سراعا غيرها وكأنها دوافع بالكربون ذات قلع<sup>(٥)</sup>

وتروى بعض الروايات أبياتا قليلة من الرجز، منسوبة إلى عمرو بن العاص، وتذكر أنه قالها في حصار بابلون، يصف فيها المنجنيق على هذا النمط:

(١) انظر أغاني دار الكتب ج ٦ ص ٥٦، الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٢٥، وفتوح البلدان ص ٢٢٦، وابن الأثير ج ٣ ص ٧٠، الإصابة ج ٧ ص ٦٣.

(٢) الخزانة ج ١ ص ٢٠٣.

(٣) ديوان الهذليين ج ١ ص ١-٣، الاستيعاب ص ٦٦٥، أسد الغابة ج ٥ ص ١٩٠، الإصابة ج ٧ ص ٦٤.

(٤) مصر العربية ص ١٠٤.

(٥) ياقوت، ج ٤ ص ٤٧١.

يوم لهمدان ويوم للصدف  
والمنجنيق فى بلى تختلف  
وعمره يرقل إرقال الشيخ الخرف<sup>(١)</sup>

وتذهب بعض الروايات الأخرى: إلى أنه قالها فى معركة صفين<sup>(٢)</sup> ولكننا لا نستطيع أن نعتقد أن عمرا قال هذه الأبيات. ونحن لا ننكر أن لعمره شعرا كثيرا روته كتب التاريخ، على عادة الرواة الذين لا يكادون يتركون واحدا من الصحابة من غير أن يرووا له شعرا. والذي يمنعنا من الاعتقاد فى صحة نسبة هذه الأبيات إلى عمرو واضح فى الأبيات نفسها، فليس عمرو بن العاص باعتداده بنفسه وشموخه واعتزازه هو الذى يقول عن نفسه هذا القول، ويصف نفسه بهذا الوصف.

ولا نجد أثرا لمغامرات المسلمين فى بلاد النوبة واستعصائها عليهم فى الشعر، فلم يهتج شاعر مثلا لوصف ما جرى من معارك عنيفة، ذهبت فيها رماح القوم بأحداق المسلمين.

وفى إفريقية التى فتحها عبدالله بن سعد بن أبى سرح، والتقى فيها بجرجير فى معركة عنيفة، وأصاب المسلمون فيها غنائم وفيرة لا نجد ما يصور هذه الأحداث، إلا أبياتا لأبى ذؤيب الهذلى، يمدح فيها عبدالله بن الزبير الذى اغتتم فرصة قتل فيها جرجير. ويبدأ أبو ذؤيب أبياته بالنسيب ويتقل منه إلى وصف السحاب، ثم يعود إلى النسيب فيخلطه بمدح ابن الزبير ويشير إلى رحلتها معا فيقول:

وصاحب صدق كسيد الضرا	ء ينهض فى الغزو نهضا نجحيا
وشيك الفضول بطيء القفو	ل إلا مشاحا به أو مشحيا
يريع الغزاة وما إن يريـ	ع مضطمرا طرناه طليحا
كسيف المرادى لا ناكلا	جبانا ولا جيدرنا قبيحا

(١) ابن عبد الحكم ص ١٦٢.

(٢) وقعة صفين، ص ٤٦٣.

قد أبقى لك الأين من جسمه	نواشر سيد ووجهها صبيحا
أربت لأرْبته فانطلقــــ	ست أَرْجى لِحِب الإياب السنيحا
على طرق كَنحور الركا	ب تحسب آرامهن الصروحا
بهن نعام بناها الرجا	ل تبقى النقائض فيها السريحا(١)

والآيات تعطى الصورة لتوثق أواصر الصداقة بين الرجلين ومتابعة الشاعر للفارس في انطلاقته، وربما تبرر هذه الصداقة ما يروى من تلازمهما حتى ليكون ابن الزبير هو الذى يوسد الشاعر فى ضجعته الأخيرة منصرفهما من غزوة إفريقية فى بعض الروايات(٢). وقد قال الشاعر المجاهد وهو يتعد لرقدته الأخيرة واصفا حفرة التى دفن فيها:

مطأطأة لم ينبطوها وإنهسا	ليرضى بها فراطها أم واحد
قضوا ما قضوا من رمها ثم أقبلوا	إلى بطاء المشى غبر السواعد
فكنت دنوب البئر لما تبسلت	وسربلت أكفانى ووسدت ساعدي(٣)

ولسنا نجد ظلا ولو باهتا يصور انسياح الفاتحين فى أفريقية وفتحهم لبرقة وطرابلس وما بينهما وما حولهما كودان وفزان، اللهم إلا ما يتردد فى كتب التاريخ من شكوى المسلمين من اختصاص الخليفة عثمان بن عفان لمروان بن الحكم بخمس الفية الذى جاء من أفريقية، فيقول عبدالرحمن بن حنبل فى هذا المعنى:

وأحلف بالله جهد اليمين	ما ترك الله أمرا سدى
ولكن جعلت لنا فئة	لكى نبنتلى بك أو نبنتلى
دعوت الطريد فأدنيته	خلافاً لما سنه المصطفى
ووليت قرباك أمر العباد	خلافاً لسنة ما قد مضى

(١) ديوان الهذليين ، ج ١ ص ١٣٥ - ١٣٦ ، الأغاني (دار الكتب) ج ٦ ص ٢٦٦ ، وابن قتيبة ج ٢ ص ٦٣٥ .  
(٢) أسد الغابة ج ٥ ص ١٨٩ ، الاستيعاب ص ٦٦٦ ، الخزانة ج ١ ص ٢٠٣ .  
(٣) الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٤٠ - ٦٤١ .

وأعطيت مروان خمس الغنيم      ممة أثرته وحميت الحمى  
وما لا أتاك به الأشعري      من الفيء أعطيته من دنا  
فإن الأميين قد بينا      منار الطريق عليه الهدى  
فما أخذنا درهما غيلة      ولا قسما درهما في هوى<sup>(١)</sup>

وجلى أن هذه الأبيات لم يقلها الشاعر فى المعركة، وإنما قالها فى شبه الجزيرة، يلوم فيها على الخليفة تفريطه فى فيء المسلمين ومحاباته أقاربه، وليس هناك أشعار وراء هذه الأبيات التى لا تصور من الفتح إلا جانباً فردياً شاحباً من جوانب المعركة، وبذلك لا نجد فى الشعر آثاراً للتجربة الهائلة التى كنا نتوقع أن نرى لها نتائج أديبة خطيرة، لما كان من عنف المعارك، وقسوة القتال، واختلاف البيئة وجدتها على الفاتحين، وغناها بالعناصر الجديرة بالوصف، والملهمة بالتعبير.

ولهذا لا يمكننا أن نعزو انعدام التعبير الشعرى هنا لانعدام المثيرات، فإن التجربة حافلة بالأحداث المثيرة، والأحاسيس المختلفة الحقيقة بالتعبير والتصوير.

ولا نملك إزاء ما نجد من تقصير الشعر فى رسم جوانب تجربة الفتوح الإسلامية فى الشام، وندرة الشعر أو انعدامه فى مصر وأفريقية، إلا أن نقرر ما سبق أن قررناه من أن جل الفاتحين لهذه الميادين كانوا من عرب اليمن، الذين لم يرزقوا ما رزق العدنانيون من اقتدار على التعبير الشعرى، وأن ما وجد فى الشام من الشعر لم يكن إلا نتيجة لوجود بعض القبائل العدنانية التى استقرت لفترة ثم رحلت، وأن ما وجد بمصر لم يكن إلا نتيجة لوجود بعض قبائل عدنان الشهيرة بالشعر، وربما ضاع فى مصر شعر لقبائل أخرى لم تصل إلينا دواوينهم، كما وصل إلينا ديوان هذيل. ولا شك أن من أهم الأسباب الفاعلة فى قلة الشعر فى مصر والشام وأنه لم يدون، وأن الذين كتبوا عن الفتوح كانوا فى جملتهم من مؤرخى العراق ورواته، وكذلك كان رواة الشعر، ومن ثم ضاع الشعر الذى نظم فى الفتوح بغربى الدولة. على أننا كما قدمنا نفترض إلى جانب ذلك أن قلته ترجع إلى أن كثرة القبائل المهاجرة هناك كانت يمنية، والشعر فى مضر لا فى

(١) الاستيعاب ج ١ ص ٤١٠، ٤١١، أغاني دار الكتب ج ٦ ص ٢٦٨.

اليمن، ومما يدل على ما نذهب إليه من ذلك أن مسألة مثل فشو اللحن على السنة العرب الفصحاء حينما تعرض لها الجاحظ في البيان والتبيين لم يذكر لنا شيئا عن مصر، وإن كان ذكر عرضا شيئا عن لحن بعض الخلفاء الأمويين، ولكنه لم يعرض للشعب العربي في الشام ومصر، وفي نفس الوقت نراه يعرض في تفصيل لفشو اللحن على السنة الكوفيين والبصريين، وما ذلك إلا لأن الرواة كانوا من العراق، وعنوا بتدوين كل ما يتصل به، ولم يعنوا بتدوين الظواهر اللغوية في الغرب.

ومعنى ذلك أن الشام ومصر وشعراءهما حتى في العصر الأموي لا يأخذون مجالا واسعا في الرواية الأدبية أو اللغوية، فما بالناس بعصر الفتوح؟

